

لجنة ترجمة دائرة المعارف الإسلامية

أعلام الإسلام

# ابونواس

قصة حياته وشعره

عبد الرحمن صديقي

مستودع النسخ والنشر  
دار إحياء الكتب العربية  
بيعتي الببائي الخليلي وشركاه

obeykandl.com

# مقدمة

نقتصر في هذه المقدمة على كلمتين : عامة ، وخاصة

فأما الأولى ، فنقصد بها الى دفع ما وقع في بعض الأوهام من أن المعنى المراد بمجموعة « أعلام الإسلام » أنها وقفٌ على الترجمة للهداة المصلحين والفقهاء المجتهدين والأبطال المحاربين عن حوزة الدين . فالجموعة فيما أرادته اللجنة القائمة بنشرها هي في حقيقة الواقع أوسع من ذلك مجالاً وأرحب أفقاً . فهي تشمل على هؤلاء وعلى غير هؤلاء ، ممن تفيد الترجمة لحياتهم في تمثيل وجه من وجوه الحياة الاجتماعية في العالم الإسلامي ، في بداوته وحضارته ، وفي جده وهووه ، وفي إيمانه وفلسفته ، حتى يخلص من ذلك كله صورةً كاملةً صادقةً لما كانت عليه تلك العهود ، وما دخل عليها من آثار ، وما اختلف عليها من أطوار ، فيتمثلها المطالع العصري على جلّيتها وحقيقتها ويتعرف موجبات تقدمها ورقبها ودواعي تدهورها وسقوطها .

وأما الأخرى فنريد بها بيان ما توخينا في وضع هذا الكتاب ورسم معالمه وسياقة أجزائه . فقد توخينا في ذلك منهج التراجم الحديثة من إظهار

الترجم له شخصية حيةً موضوع الرحمة بآبائه ، معقود الأسباب بعصره ،  
يُستبان هنا وهناك في سماته ومتصرفاته عرقُ الوراثة وأثر البيئة . ولقد أفرغنا  
وسعنا وبذلنا غاية جهدنا في الاستقراء والاستنتاج من شتات أخباره حيناً ،  
ومن ديوان أشعاره في معظم الأحيان ، حتى تهيأ لنا في ترجمته ما تهيأ من  
تأسيس البنیان وإقامة الأركان ، وملء الفجوات بما يتفق مع منطق الحياة  
دون أن يخلو قولٌ من سندٍ له ؛ أو - على الأقل - من مصداقٍ على جواز  
صحته ، من سير الحوادث في التاريخ العام ، وخصائص الشعوب في شتى  
البلدان ، وطبائع الإنسان من حيث هو إنسان . فجاءت الترجمة لأبي نواس  
- كما يراها القارئ - مطردة السياق متصلة الحلقات ، تنتظم حياته من نشأته  
الى وفاته مرحلةً بعد مرحلة ، مع قلة المراجع في هذا الشأن وانصراف  
الأقدمين الذين ترجموا له عن هذا السنن . كذلك كان همنا الأكبر - مع  
تصوير دنياه وحياته الخارجية - تجلية حياته الوجدانية وتطوراته النفسية ،  
ليتم التركيبُ وتحصل على قدر توفيقنا المعجزة ، فيعود أبو نواس بعد نيف  
ومائة وألف سنةٍ الى عالم الحياة بشراً سوياً ، كما بقى في عالم الأدب شاعراً  
متدارس الشعر متعارف القدر عبقرياً .

## غرام جندي

كان كلُّ شيءٍ يؤذَنُ بسقوط البيت المالك الأموي وأقول نجمه ، بعد أن بلغت رقعةُ الملك في عهد بني مروان مثل الذي بلغت في أوج العظمة امبراطورية الرومان ، إذ كانت دولتهم تنبسط من الهند وحدود الصين شرقاً الى المغرب الأقصى والأندلس غرباً . ولقد كانت العاصفة تهب من كلِّ أَوْبٍ وصوب . فثمة العلويون شيعة آل البيت الذين لا يرون في خلفاء بني أمية إلا أنهم غاصبون ، وثمة الشعوب المغلوبة التي يعاملها العرب معاملة السيد للمسود تترقب الساعة خلع الطاعة ، وهنا قبائل العرب و بطونهم تجمش صدورهم على عصبية قريش واستبدادها من دونهم بالحكم ومناصب الدولة ، ثم الناقمون على السلطان من أفراد الناس وآحادهم لأسباب تخصهم ولا تعني غيرهم ، وفي غمار هذا جميعه المهيجون دعاةُ الفتن الذين اتخذوا صناعتهم إيقاداً جرها وتأريثاً نارها .

وفي هذه الفترة كان على عرش الخلافة القائد العالي الهمة مروان الثاني

وهو وقتئذ شيخ قد ناهز الستين . ولم يطل قراره في دسّ الملك حتى انتقض  
أهل حمص وفلسطين ، فأبلى القائدُ المحنك في حربهم وأوقع بهم وأخذ  
ثأرتهم ، وخرج عليه الخوارج من الغلاة المتعصبين ، واجتاحوا اليمن والحجاز  
والعراق ، فدارت بينه وبينهم وقائع دامية ، وانتهى بأن ظهر عليهم وأجلى  
من كانوا منهم باليمن والحجاز إلى حضرموت ومن كانوا بالعراق إلى ما وراء  
دجلة .

وطلب مروان بن محمد بعض الراحة والاستجمام في قصره المحبب إليه  
في « حرّان » . ولكنه كان مع ذلك غير مطمئن الخاطر من ناحية فارس  
وخراسان ، فأنفذ الجند إلى ما وراء دجلة للشحنة والرباط .

\*\*\*

كان من الأطراف التي أوفد إليها الخليفة الأموي البعث لعظم شأنها  
من الوجهة الحربية ، كورة الأهواز بين البصرة وفارس . وكان من رجالها  
جندى من غمار الجند شاءت المقادير أن يحفظ التاريخ اسمه طوال ما غير  
من سوائف السنين ، وهو لا محالة حافظه في مستأنف الأيام إلى أبد الأبدين  
ذلك الرجل هو « هانىء » . وكل فضله أن المقادير شاءت أن يكون أباً  
لابنه « الحسن بن هانىء » أحد الأعلام الخالدين من شعراء العربية المجددين .  
قدم « هانىء » مع سائر أجناد فرقته إلى الأهواز ، وأقاموا معسكرهم في  
ظاهر المدينة . وكانت المدينة تُعرف بسوق الأهواز لاجتماع التجارة فيها من

النواحي المجاورة ولما يصدر عنها من السكر الجيد المنسوب إليها . ولم يكن بين الجند من ارتاحت نفسه إلى هذه النقلة للذي وجدوه من حرها ووخامة هوائها . وقد كان لما حول المدينة من منافع المياه الغليظة والسباح هبوة داخنة متصاعدة ، يُقابلها الجبل الصخري الناصب المطل عليها ، فتتعقد في الجو وتزيد حراً ووخامة . فإذا أظلم الليل واستروحوا بعض البرد في جناحه ، لم تظمن جنوبهم إلى المضجع من لسب البعوض . فلا جرم يقبلون بعضهم على بعض يذمون الأهواز ويبالغون .

ولم تلبث الحامية أن نفشت فيها الحمى . ولم يسلم منها « هاني » فقد أطبقت عليه لا تفارقه ليلاً ولا نهاراً . وكانت لا تنزع عنه حتى تعاوده فأشرف على التلف . وقام من علته في آخر الأمر موصب البدن منهوك القوى وكانت سوق الأهواز تخرقها مياه مختلفة . وكان هذا كل ما يستحبه « هاني » فيها ، لما تذكره به المياه الجارية من مناظر دمشق الشام - موطنه المحبب ، وحاضرة الملك وقتئذ وقصة الإسلام . وهو أشد ما يكون انجذاباً إلى ذلك الوادي العظيم الذي يشق الأهواز ، لا يميل النظر إلى مائه الأحمر الزاخر من البُود ، ولا يضجر من جلبة النواعير والأرحاء القائمة عليه . وكان لا يقنع منه بالضفة القريبة ، بل يعبر القنطرة العظيمة عليه ، مستغرقاً في تأمله ، يفوس بنظرته في طوامي عمرته حتى يبلغ العدو<sup>(١)</sup> الأخرى .

في عصر يومٍ شديد الحر خرج « هاني » إلى النهر، وأطال السير محاذياً

(١) الجانب والضفة

له التماساً للنسيم وارتباداً للخضرة . فكانت تتوالى على ناظره من أحد جانبيه خمائلُ أشجارٍ وشجيراتٍ موقراتٍ بالفاكهة والثمار ، ثم مزارعُ الأرز مغمورة بالماء ، حتى إذا أبعده في المسير انبسطت على مدِّ البصر مغارسُ قصب السكر قائمة الشطاط كأنها الجيوش الكثيفة اعتقلت الريح الخفيفة ، فإذا التفت إلى الناحية الأخرى ، ناحية النهر الداكن الحمر ، امتلأت نفسه روعةً وجلالاً ، من تدفق عبابه وسرعة انصبابه ، وهو يجري في حدود مسيله كالخيل الكمت في مجاريها ، وموجهٌ يضرب ويغلي ويموج بعضه في بعض ، ويعاوي أثباجه<sup>(١)</sup> من شدة فوره وجيشانه مثل اللغام<sup>(٢)</sup> من قطع الزبد وطرائق الرغوة ، وقد عجز عجبجبه وارتفع هديره .

ومضى « هاني » مأخوذاً يطوى الطريق ، وهو في شغلٍ عن المسافة التي قطعها ، والتي يلزمه في العود أن يطوى أدرأجها . حتى إذا انقطعت المزارع وتبدل لعينه المنظر ، تاب إلى نفسه فرأى الشمس جانحةً للمغرب ، وطالعتة غير بعيد منه قريةً صغيرة على سفح ربوة . وأحس وقتئذ فقط بما أصابه من التعب ، فمال إلى صخرة يستريح .

وإنه ليلتفت خوله إلى ألوان الأصيل على الموج وما ترسمه ظلال الصخور ، إذا بعينه تأخذ شخصاً امرأة على بعض الحجارة المتقدمة في الماء ، وهي مكعبة على شيء تغسله في النهر ، وقد شمّرت عن ساقها وحسرت عن ذراعها ، وهما يضيئان من نضاعة اللون والبياض . ولم تكن بالكثيرة اللحم ولكنها كانت

(١) أواسطه وأعالیه (٢) اللغام : زبد أفواه الخيل

مكورة مبتلة ، بضة الذراعين تامة الساقين ، وكان شعرها المعقوص قد استرسل من الحركة . ولما أن شعرت المرأة بالقادم أزاجت متهدل الشعر عن جانبي وجهها ، ونظرت إلى ناحيته . وكان حسبها هذه النظرة لتعرف من هيئته وبزته أنه لا يد من أجداد الحامية العربية . ولم يكن هاني يشارك الجند في خشونة الطباع والسرعة إلى التقم والاجترأ ، فلم تجفل المرأة منه وأخذت فيما كانت فيه ، وهو يلاحظها ويديم النظر إليها معجباً ببياضها وملاحة حركتها . ولعل ذلك ازدهاها ، فقد جعلت تخالسه النظر في الحين بعد الحين ولا تمنعه أن تلتقي عيناهما . وقد وقع - ولا شك - في نفسها قوائمه وشاربه المفتول ووجهه الأسمر الذهبي تحت عمامته العربية . فلما فرغت من شأنها ، قامت تحمل إجاتها<sup>(١)</sup> ولم تجفل من العجلة أن تزم الجيب<sup>(٢)</sup> على صدرها . وقد توخت أن يكون طريقها من أمامه . وأقبلت وهو ينظر إليها . فلما دنت ابتسمت له وابتسم لها ، وتجرأ فسألها عن هذا الذي معها فقالت « صوف أغسله » . وعلم منها في بعض ما علم أنها تنسج الجوارب وتصنع الأخراج . ولما كانت شمس الأصيل قدرنقت وكاد يخفى قرصها ، فقد انصرفت المرأة عنه مسرعة دون أن تبوح باسمها . ومضت مصعدة في سفح الربوة ، وهي تيمس ناعمة لينة ، وقد أبدى أعطافها ثوبها المبلل اللاصق بها ، وكان شعرها الوارد يضرب إلى حقويها . فلم يملك هاني نفسه أن تبعها على خطوات منها حتى دخلت القرية . وكانت الدروب على ضيقها تزحمها قطعان الغنم القافسة من

(١) الاجانة : بناء تفسل فيه الثياب (٢) الجيب من القميص أو الثوب : طوقه وماقورمنه

صراعيها . ولكنه لم يدع المرأة مع هذا تغيب عن عينه ، حتى دخلت بيتاً من تلك البيوت المتّضعة المتلاصقة . وقبل أن يحتويها البيت ، التفتت إليه لفتةً زادته لهفةً على لهفة .

ولم يبرح « هانيء » حتى تعرّف المكان ، فعرف أنه بالقرب من الجبل المقطوع ، وأن اسم القرية « إستانه أثار<sup>(١)</sup> » ومعناه باب النار ، وأن اسم فانتته « جُلْبَان » أي غصن الورد .

\*\*\*

لم ينعم « هانيء » طويلاً بقرب زوجته الفارسية الأهوازية . فقد انتزعه من بين ذراعيها - قبل أن ينصل خضابُ العرس من يديها - نفيراً الحرب ، لدفع الفتنة المخدورة ، وقد ارتفعت بعد الخفاء أعلامها وانلدع في الأفق ضرامها .

في ليلة الخميس ، لحس بقين من رمضان من سنة ١٢٩ هجرية ، أوقدت النيران على قنن الجبال بموضع بخراسان ، وكانت العلامة المتفق عليها بين الثائرين على الأمويين إظهاراً للدعوة وإعلاناً للثورة . فأقبلت العشرات

(١) ورد اسمها « أستان ماتارد » ولعله خطأ في النسخ وتخليط بسيط من تحريف الحروف عن مواضعها وصحته « إستانه أثار » أي باضافة الميم التي بأول الكلمة الثانية إلى النون في آخر الكلمة الأولى فتكون هاء ، ثم جعل الدال التي في آخر الكلمة الثانية سكوناً على الراء ، فيكون اسم القرية « إستانه أثار » ، وعى بعينها « باب أذر » التي وردت في مراجع أخرى محل الميلاد ، لأن إستانه معناها باب ، ولفظ أذر - أو - أذر - أو - أذر بمعنى واحد أي النار

والمئات والألوف من الأشباح المتشحين بالسواد ، مجهزين بالعدّة والسلاح ، وانتشروا كقطع الظلام تظلمهم الرايات السود . وكانت جيوش الثوار معظمها من الخراسانيين ، وهم جندهم لهم أبدان وأجسام ، ومناكب وكواهل وهامات ، ولحى وشوارب ، وأصوات نخمة تخرج من أجوافٍ منكرة - وهم إلى ذلك ذوو عددٍ كثير ، وجأدٍ ظاهر ، وقلوبٍ فارغة لم تتقسّمها الأهواء ولم يتوزعها الدغل . وانتظم الزحف ، واشتد الهجوم ، وغلظ أمرهم واستوثق . فاكتمسحوا خراسان كلها ، وأقبلوا كالسيل على ما وراءها .

وكان من حسن تنظيم الدعوة العباسية وإحكام تدبير الثورة وتسيير دقتها ، أن أسقط في يد عمال الأطراف من قبل الأمويين ودبّ الشقاق بينهم وفعلت الدسائس فعلها فيهم ، فاختلف الأمر واستشرى الفساد وانخذلت الحاميات العربية في خراسان ، ثم في العراق . ثم التقى الجيشان : جيش مروان وقد جرّد من رجاله - ممن اختارهم من سائر جيشه من أهل الشام والجزيرة وغيرهم - مائة ألف فارس على مائة ألف قارح ، وجيش المسوّد الكثيف برماحهم كأنها النخل غلظاً ، وفي أوائلهم البنود كأنها قطع من الغمام سود يحملها الرجال على الجمال البُخت وقد جعلت أقتابها من خشب الصفصاف والغرب . وكانت وقعة فاصلة عند نهر « الزاب » لحدى عشرة ليلة خلت من جمادى الآخرة في سنة ١٣٢ هجرية ، فكتب النصر للثوار الخراسانيين فتمّت لهم الغلبة ، وزالت على يدهم دولة بني أمية وظفر بالخلافة بنو العباس .

وكان من أثر هذه الغلبة تسريح الحاميات العربية وتفريق شملها ، ومنها  
حامية الأهواز . وكان الخليفة العباسي الظافر « أبو العباس السفاح » قد وجه  
عمّه اسماعيل عاملاً على كورها . وعاد « هاني » الجندي القديم إلى زوجته في  
قربتها بالقرب من الجبل المقطوع ، ولكنه عاد وهو موزع النفس بين الكمد  
والسرور . فقد كان يسره أن تنتهي الحرب ، ولكن لا على هذا الوجه من  
انقطاع مادة رزقه ، وسقوط شوكة قومه . واستقبلته « جُلبان » كما تستقبل  
المرأة المحبة زوجها ، وقد استنطارها الفرحُ وماد بعطفها وغلب عليها . ولم  
يكن فرحها كله خالصاً له ، فقد كان بعضه لقومها الغالبين ، ولكنه مضمرٌ  
في طوايا نفسها لا يبين . ولم يعد الجندي القديم وسيلةً للكسب الشريف ،  
فاشتغل برعى الغنم وبالحياكة ، ومضت هي في صنع الأخراج ونسج الجوارب .  
وتعاون الاثنان على العيش بالمجاهدة والسعي ، وألهما عن اتفاقة ورقة الحال  
ما كان بينهما من استدامة الصبوة والغرام . وقد أثمر هذا الحب ثمرته فأولدها  
عدة أولاد<sup>(١)</sup> ، نعرف منهم فتاة يقال إنها كانت عنده فرج القضار وهو  
عبدٌ كان لأحمد بن عصمة الله البخارزي ، ونعرف من الذكور اسماعيل ،

(١) قيل إن هانئاً لم يكن له ولد ولا خلف غير أبي نواس ، وقيل إن له أولاداً غيره .  
وقد رجح الرأي الأخير عندنا أنه قد جرى اسم أحمد أبي معاذ على ألسن الرواة أكثر من  
مرة على أنه أخ لأبي نواس ، ثم زادنا ترجيحاً ما ورد في تاريخ الأمم والملوك للطبري في  
قوله في الجزء العاشر في الصفحة ٢٦٩ ما نصه ( وذكر عن إبراهيم بن اسماعيل بن هاني  
ابن أخي أبي نواس قال حدثني أبي قال هجا عمك أبو نواس مضر في قصيدته التي يقول  
فيها كذا فبلغ ذلك الرشيد الخ )

ويعرف أكثر منه أحمد أبو معاذ وهو الذي يقال إنه كان يعمل مؤدباً لأولاد فرج الرُّخَجِيّ الخَبَّاز<sup>(١)</sup> ، ثم عرف الحسن - وكان مولده في القرية نفسها المعروفة باب النار سنة ١٤١<sup>(٢)</sup> في عهد ثاني الخلفاء العباسيين أبي جعفر المنصور - وهو الذي نبغ ذكره من الأسرة وبه عرفت ، حتى كان أبو معاذ مع عطفه من مذاهب الأدب وقلة إحسانه لشيء منها يتعیش بأنه أخوه ، وكان اسماعيل كثير الرواية له وعنه روى ابنه ابراهيم .

وهذا « الحسن بن هاني » هو شاعرنا الذي عرفته الأجيال بعد ذلك باسمه المحب « أبو نواس » ، واجتمع أكثر النقاد العرب على أنه أشعر الشعراء المحدثين .

---

١ (١) ورد في بعض رسائل الجاحظ « في صناعات القواد » ما نصه « وسالت فرجا الرُّخَجِيّ وكان خبازا . . . »  
(٢) اختلف الرواة كعادتهم في مولد أبي نواس ووفاته . فذكروا في مولده سنوات ١٣٦ - ١٤١ - ١٤٥ - ١٤٨ - ١٤٩ وجاء في الجزء السادس عشر في الصفحة ٧٤ من معجم الأدباء عن الجاحظ أنه قال « أنا أسن من أبي نواس بسنة ، ولدت في أول سنة ١٥٠ وولدت في آخرها » . وذكروا في وفاته سنوات ١٩٥ - ١٩٦ - ١٩٧ - ١٩٨ - ١٩٩ - ولكنهم على الإجماع أو ما يشبه الإجماع من أنه مات وعمره تسع وخمسون سنة . ولما كان أبو نواس قد برئ الأمين وكان قتل الأمين في سنة ١٩٨ ، فالمرجح أنه توفي سنة ١٩٩ ، وهذا يحدد لنا مولده في سنة ١٤١ وهذا التاريخان لمولده ووفاته يطابقان ما نقله جامع ديوان أبي نواس حمزة بن الحسن الأصبهاني عن أبي بكر أحمد بن شقير النحوي عن أحمد بن أبي طاهر .

## طالب علم

كان بأطراف البصرة ، في بعض الدروب التي تخرج من سكة المربد ، بيتٌ من القصب تسكنه امرأةٌ أهوازية وفدت عام ١٤٣ هـ على البصرة ومعها زوجها وهو وقتئذٍ طرّاًزٌ حائك . وكان الرجل بالمدينة العظيمة حديث عهدٍ ، فلا جرّم يكون ضعيفَ المقدرة مضيئاً عليه في الرزق . ولم تسكن امرأته لهذه الحال فجعلت ترضع بلبانِ غلامها « الحسن » - وكان ابن سنتين<sup>(١)</sup> - غلاماً من ثقيف . ولم يكن رزقها من الرضاع كثير الغناء ، ولكنه كان عوناً على كل حال لمن كان بموضعها من الحاجة وكثرة العيال . ولم تطل المدة حتى أرملت « جُلبان » وأصبحت لا سند لها ولا عائل لولدها وكانت من النساء برّزةً شملاً ، لها على الحياة جرأة وإقبالٌ ، فلم يركها همٌّ ولم تفترها همة . وعمدت إلى ما كان لها من صناعة ، فجعلت تغشى

(١) قيل في بعض روايات ابن منظور ان أبا نواس انتقلت به أمه الى البصرة وهو ابن سبع سنين ، ولكن الذي آثرنا هو ما ورد في ابن خلكان من أنها انتقلت به وعمره سنتان ، لأن ذلك دون غيره يتفق مع حكاية الأصمعي أن أمه كانت في البصرة ترضع بلبانه غلاماً من ثقيف ، وهذا القول قاطع بأنه كان رضيعاً وقت قدوم أمه به

البيوت بما تصنع من جوارب وأخراج بيدها الصناعات المدربة ، فانفجرت شدتها وحسن أمرها ، وانتقلت إلى دار في المدينة من الأجر والجص . ونفقت تجارتها ، وقصدها بعض الراغبين في أشياءها من الغواني والرجال حتى قيل إنهم كانوا يلتقون عندها على موعدٍ وإنها كانت تجمع بينهم لريبة .

وكانت المدينة متسعة الرقعة ، كثيرة العمران ، تغص بالسكان من كل لونٍ وسحنة . فهي واسطة العقد بين الشام وفارس ، تمتد تجارتها شرقاً إلى الهند والصين ، وتمتد غرباً إلى أقصى بلاد المغرب ، وترسو مئات السفن في فُرُصتها تحمل أصناف المتاجر من ناحية البحر أو الرافدين .

وفي هذا المزدحم من التجار الوافدين والمقيمين ، وفي هذه الحال من وفور المال ، عاشت الأرملة « جُلْبَان » عيشتها في طلب الكسب . وكانت - مع ما يدخل إليها من ربح - لا تخرج عما انطبع عليه أهل الأهول من البخل ، تعيش على خبز الأرز والكامخ من صغار السمك المملوح المعروف بالصحناء وبعض تمرات . ولم يزل هذا دأبها في البخل على نفسها وعلى ولدها .

ولقد زاد « جُلْبَان » استمساكاً بالحرص ما كان يتقلب على عينها أو يتصل بسمعها في عصر الانتقال الذي تعيش فيه من فورات الهرج وكثرة الفتنة ، وما يشغب أحياناً من ثورات ويستشرى من فتوق ، حتى بعد أن استوثق الأمر للخليفة العباسي الثاني أبي جعفر المنصور ، ورسخت دولته بعد مقتل أبي مسلم الخراساني وغلت في الناس كلمته وملاّت الصدور هيبتة - ومن

ذلك ما جرى في البصرة نفسها بين سمعياً وبصرها. فقد ظهرت الدعوة في سنة ١٤٥ لمحمد العلوي - الملقب بالنفس الزكية - من حفدة الحسين بن علي، وكان معظم رجال البيت الهاشمي ومنهم المنتور قد عاهدوه على المبايعة له بالخلافة في أيام الثورة على البيت الأموي ثم عادوا فأثروا بها أنفسهم. وكان من شأن إظهار الدعوة أن وثب أخوه إبراهيم على البصرة، فغلب عليها وأبدل شعار أهلها من السواد إلى البياض واتخذها مقره، ثم انبسط أمره على الأهواز وفارس وواسط والمدائن والسواد. فلما وقر في النفوس أن الدولة للعلويين، وأنه قد أُدِيل لهم من خصومهم الأمويين والعباسيين جميعاً حتى قلل في ذلك بشار بن برد مشيئاً لعهد أبي جعفر المنتور متشفيماً بمصير دولته:

أبا جعفر، ما طولُ عيشٍ بدائمٍ ولا سالمٌ عمّا قليلٍ بسالمٍ  
إذا بالجيوشِ العلوِيّةِ تنهزمُ، ويتبدّلُ الحالُ غيرَ الحالِ. وتعودُ البلادُ كلها  
إلى حوزةِ الخليفةِ العباسيِّ فيعملُ القتلُ في العلويينَ، وينكلُ بمنَ آزرَ دعوتهم  
من أشرفِ البصرة، يصابُ منهم من يصلبُ ويسجنُ من يسجنُ، ويدكُّ  
دورهم ويخربُ بساتينهم ويصادرُ أموالهم. واختلطتِ الأمورُ في المدينةِ  
واضطربتِ الأرزاقُ رديحاً غيرَ قصيرٍ من الزمنِ.

وواضحٌ من هذا أن الظروفَ المحيطةَ والأحوالَ الملائسةَ لم يكن من شأنها أن تعدلَ بجلبان عن طبيعتها - لو صح أن للمرء عن طبيعته معدلاً. فهي ماضية في حرصها بتواطؤٍ من طبيعتها وعقلها.

ولقد دفعت جُلبان الصبي منذ نعومة أظفاره كسائر الصبيان في البصرة الى كُتاب من المكاتب القريبة من الدار . فكان « الحسن » يغدو إليه كل يوم يتعلم القراءة والكتابة والقرآن . وكانت أمه ترسل الأجر للمعلم خبزاً حتى تقدم الغلام فكانت ترسل الدرهم والدرهمين . وكان جزاء التصدير في المكاتب الضرب والحبس . والذي يرجع الى ديوان شاعرنا يقرأ له فيما يقرأ وصفَ غلام في « مكتب حفص » ناله الضربُ من مقرعة المعلم وهو ناعمٌ من الغلمان المترفين المدللين ، والمقطوعة كسائر مقطعات شاعرنا غاية في لطف التصوير وآية على خفة الروح والدعابة :

قال حفصُ « إجلدوه      إنه عندي بليدُ  
لم يزل مذ كان في الدر      س عن الدرس يجيدُ  
كُشفتُ عنه خزوزُ      وعن الخزِّ برودُ (١)  
ثم هالوه بسَيْرِ      لئن ما فيه عود  
عندها صاح حبيبي      « يا معلم لا أعود »

وكان اشتهر في البصرة في ذلك الحين القارئُ العالم يعقوب الحضرمي وهو من بيت علمٍ بالعربية والأدب، وقد ذاع تعليمه للقراءات وأصبح إمام البصرة فيها . وكان من أعلم أهل زمانه بمذاهب النحاة في القرآن الكريم ووجوه الاختلاف فيه . فقرأ عليه « الحسن » القرآن . وكان زاهداً ورعاً ناسكاً ،

(١) الخز من الثياب ما نسج من حرير - والبرد ثوب مخطط .

فجعل يعلمه بحسبةً ولا يأخذ على تعليمه أجراً . وزاد أنه حين رأى حفظه  
وحذقه رمى إليه بخاتمه قائلاً : « اذهب فأنت أقرأ أهل البصرة »  
ولما شبَّ الغلام رغب في الأدب وتعلّق بالشعر . ولم يقع ذلك من أمه  
موقعاً ترضاه ، وكانت لا تؤثر على التجارة شيئاً لما يحصل عنها في البصرة من  
وافر الأرزاق . فأسلمته على رغبة إلى بعض العطارين يعمل عنده ويبرئ له  
عود البخور . فلم يصرفه ذلك عما في نفسه . وجعل كل يوم يأتي المسجد الجامع  
فيحضر العلم على شيوخه . وكان كل شيخ إلى سارية ، ولكل مُريدٍ أن  
ينتظم في الحلقة التي يريدُها . وكانت حلقات الدرس لا تقتصر في المسجد على  
علوم الدين ، وإنما علومها مختلفات باختلاف ما تخصص الشيخ فيه من المسائل  
والموضوعات . فكان « الحسن » يقعد بين من قعدوا إلى أبي زيد الأنصاري  
النحوي اللغوي ، يسمع لما يستشهد به من أوامد الأبيات وفرائد البلاغات  
من كلام العرب وقصائدهم ورجزهم ، ويكتب عنه ما يشرح من نوادرها  
وغريب ألفاظها . ويتحول إلى « أبي عبيدة معمر بن المثنى » الفارسي الأصل  
العربي المربّي ، فينفسح له الأفق وهو يصغى إلى كلامه المستبجر الجامع عن  
أيام العرب وقبائلهم وأنسابهم وأخبارهم وعلومهم ، ومقابلة ذلك بما عند الفرس  
وكان لشعوبيته يتعرض للعرب أحياناً ويبسط القول في مثالبها . ولقد كان  
أبو عبيدة - لأصله الفارسي - صاحب عبارة سيئة ، وقد يلحن ، وإذا قرأ  
البيت من الشعر لم يُقيم إعرابه ويُنشده مختلف العروض ، مع وفور عقله  
واشتماله على علوم العرب . حتى جرى قولهم فيه أن من يأتي مجلسه اشترى

أندري في سوق البعير . وكان فتانا « الحسن » على كثرة عبثه به يقول عنه :  
« أديم طوى على علم » . ثم كان الحسن يقبل على « خلف الأحمر » وهو  
من أبوين فرغانيين وقد أصبح راوية البصرة الأشهر ، وأعلم الناس فيها  
بالشعر ونقده والشعراء ومذاهبهم . فیتلقى منه ويتلمذ عليه ويكثر من  
الجلوس إليه . وكان يشهد أحياناً في بعض الأركان من المسجد مناظرات  
الأدباء وملاحظاتهم ويمر أحياناً ببعض الشعراء وقد انتحوا ناحية يملون  
أشعارهم في شتى الأغراض من المديح الى الغزل . وكان يحضر الحديث على  
الإمام « عبد الواحد بن زياد العبدى » وغيره من الحفاظ الأعلام ، والمحدثين  
التفقات . فإذا انتهى الكلام فليس يخلو المكان من أصحابه يستمع إليهم  
ويأخذ عنهم

وظل الحسن أعواماً على هذه الحال يعمل بالنهار عند العطار ويتنقل في  
المساء بين هؤلاء وغيرهم في مسجد البصرة وفي دورهم ، يبتهم علوم زمانه  
التهاماً ، ويطوى مراحلها طياً . وهو في أثناء ذلك لا يفتر عن معاناة الشعر  
وتسقط أخبار الشعراء ، وحضور مجالس الأدب ومصاحبة أهل المسجد والمجان .  
وكان الفتى حسن الوجه ، رقيق اللون ، أبيض ناعم الجسم ، نحيفاً كبير الهامة  
منسدل الذوائب ، أثلغ بالراء يجعلها غيناً ، وفي حلقه بحجة لا تفارقه ، وذلك  
إلى لين طبع وحلاوة شمائل . فكان إذا دخل حلقة الدرس التفت القوم  
إلى حسنه وحدائه سنه وجمعه خفة الروح والفراهة الى الذكاء وقوة التحصيل  
وكان ممن كلفهم صاحبنا في هذه السن أو نحوها محمد بن منذر الشاعر .

تقد دخل ابن منذر في بعض الأيام المسجد الجامع بالبصرة ، فوقعت عينه على فتى مستند إلى السارية ، فالتمس رقعةً ودواةً فكتب إليه أبياتاً مدحه بها ، وسأل غلاماً أن يوصل الرقعة إليه . فلما قرأها الفتى قلبها وكتب على ظهرها ساخراً ما جناً :

مثلُ امتداحك لي بلا ورقٍ<sup>(١)</sup>      مثلُ الجدارِ بُني على خُصٍّ<sup>٢</sup>  
وَالدُّ عِنْدِي مِنْ مَدِيحِكَ لِي      سَوْدُ النِّعَالِ وَلَيْنُ الْقُمُصِّ

فلما قرأها ابن منذر قام إليه فقال : « ويلك ، أنت الحسن ؟ » . قال :  
« نعم » فسلم عليه وتعانقا . وكان ذلك أول المودة بينهما

ولقد أشار شاعرنا إلى هذه الحال في مستأنف أيامه في قصيدة له مطلعها :

إِذَا مَا وَطِئَ الْأَمْرَ      دُلِّلْتُ لِلْعِلْمِ حَصَى الْمَسْجِدِ

وكانت أمه قد شغلت عنه بغرامٍ جديدٍ بمن يدعى « العباس » شاع خبره حتى شهرت به ، ولقد أصاب الحسن من ذلك تعبيراً لداته وأقرانه ، وتعرض فيه لقول من هاجمهم وهاجوه بعد ذلك من الشعراء والشواعر .  
ومنه قول أبان اللاحق :

إِنْ يَكُنْ هَذَا النَّوَاسِيَّ      بَلَا ذَنْبٍ هِجَانَا  
فَلَقَدْ عَفْنَا حِينًا      وَصَفَعْنَا زَمَانَا  
هَانِي الْجَوْنُ<sup>(٢)</sup> أَبُوهُ      زَادَهُ اللَّهُ هَوَانَا  
سَائِلِ الْعَبَّاسِ ، وَاسْمَعْ      عَنْهُ مِنْ أُمَّكَ شَانَا

(١) الدراهم المضروبة (٢) الجون الأسود إشارة إلى شدة سمرته

ولم يكن إلا اليسير حتى حرم الفتى بعد أبيه البقيةَ الباقية من رعاية أمه  
فلقد انتهى الأمر بزواجها من الرجل الذي أحبته . وكانت من صنف المرأة  
التي لا تصبر على عزوبة ولا تنغى عن زوج . فأنصرفت الى الزوج الجديد  
بكليتها وأذهلت عن ولدها ، فأهملت شأنه غاية ما يكون الإهمال ، وتركت  
للعطار أمره . وانقطع منذ ذلك الحين ما بين الفتى وأمه ، ولم يتصل سبب  
بينهما حتى موته .

ولعلّ الفتى ارتاح في دخيلة نفسه إلى ما صار إليه من مطلق الحرية ،  
إذا شاء ركب رأسه ، وإذا شاء لزم درسه . فقد كان الحسن متقدماً على سنه  
في بكون عقله ، وفي يقظة حسه . فهو شديد النهم الى المعرفة وإلى الحياة  
معاً . وكانت المدينة حوله بأسباب هذا وذلك عامرة زاخرة .

كانت البصرة حاضرة عظيمة من حواضر العلم ، وأحد المصيرين  
- البصرة والسكوفة - اللذين كانا قبل بغداد يقومان على إشاعة المعارف  
والعلوم العربية ، وسائر البحوث العقلية والعقلية ، ومذاهب الكلام وألوان  
الأدب وضروب الثقافات . وكانت في ذلك تتنافسان وتتفاخران وتتكاثران  
بالنوازع والعطاء في كل حلبة وميدان . وكانت البصرة كذلك - بما يزحم  
أسواقها من التجارات وما اجتمع فيها من الأموال والخيرات - حاضرة عظيمة  
من حواضر اللهو ، تعج بما فيها من الملاحى وأسباب اللذة وموجبات الفتن

والنوايات . وبلغ من ذلك أن خلفاء بني العباس حين فكروا في التحرز  
لملكهم من أطماع الأمراء الهاشميين من أهل بيتهم ، لم يجدوا غير البصرة  
يُقطعونهم فيها القطاعع والضياع الواسعة ، ويخصصون لهم الرواتب الجزيلة حتى  
يشغلهم مقامهم فيها بين القصف والمتعة عن الشره الى الخلافة .

وكانت المدينة في حقل من المناظر الحسنة والمجالس الأنيقة ، تتخللها المياه  
وتتوسطها الميادين العجيبة ، وتزهو بالخشب والنضارة والبساتين الكثيرة ذات  
الفواكه الأثيرة . وكان واديها الأعظم - مجتمع القرأتين المعروف بشط العرب  
- يُقبل ماؤه مُعنيقاً ويفيض متدفقاً . وهو بالحدائق المتصلة منتظم - فأوله  
الرطب ، وأوسطه العنب ، وآخره القصب - وبينها معاصر الدبس . ولم يكن  
في الدنيا أكثر نخلاً منها حتى كان يباع التمر فيها بأبخس الأثمان ، وكانت  
النخيل تتصل مسافات شامعة إلى أرباضها ومحلاتها وماجاورها ، فلا يكون  
الإنسان في مكان إلا وهو في نهرٍ ونخيلٍ ، أو بحيث يراها .

ولم يكن الحسن بالمغمض العينين ولا بالعلق القلب عن هذه المفاتن .  
وهو من عامنا من يقظة الحس وتفزز الأعصاب وتشوف النفس . وكان يمر في  
كل صباح ومساءً بالجداول والبرك الفسيحة تجري فيها الزواريق والسماريات  
وفيهما المتزهون ومعهم المغنيات من القيان ، والسقاة من الغلمان ، منحدرين  
ومُصعدين . فإذا احتواه حانوتُ العطار الذي يعمل عنده ، تطرق إلى سمعه  
ما يذكره المترددون لشراء الأطياب والبخور من وصفٍ لما كان من مجالس

اللهو ونوادير السكر ، وإنشادٍ لأحدث ما نظمه الشعراء المجدثون في الخلاعة  
والمجون . حتى إذا كان العشيّة مع أهل المسجد لم تخلُ حلقاتُ الدرس من  
روايةٍ بعض الملح والبطالات في الحين بعد الحين ، يرويها المشايخ متفكّهين  
غير متحرّجين ، بحجة أن في بعض الهزل تنشيطاً للقلب وذهاباً بالكلال ،  
فضلا عن كان يلتقي بهم الفتي ويرافقهم في الطريق من الشطّار والعيّارين  
ومن لفّ لفهم من خلطاء السوء

## الذئبُ والحمل

لزم « الحسن » سوق العطارين بعد زواج أمه ، ولم يهجر حانوت العطار  
الذي أسامته إليه ، وإن يكن قد كره هذه الصناعة وملها ، بمقدار ما زاد  
اشتغاله بالأدب واهتمامه له وكثر غشيانه للأسمار وسماعه لرواة الأشعار .  
وكانت نفسه تهتز للشعر ، تتشرب معانيه شرباً ، وتتطرب لوزنه ونغمه  
طرباً ، وتغمرها منه غمرة تُسكر حسه وتغلبه على وعيه . وكانت أمنية حياته  
التي بها يحلم ، أن يتصل بهؤلاء الذين يتردد على سمعه ذكرهم ويتغنى أهل  
العصر بشعرهم .

ولقد شاء القدرُ الساخر فيما يخلط من خيرٍ وشر ، أن احتاج عاملُ  
المنصور على الأهواز « أبو بجير الأسدي » إلى عطرٍ يعمل له ، فلم يجد في  
الأهواز عطاراً يصلح لذلك . فبعث إلى البصرة في طلبه ، فأشخصوا إليه  
أستاذ الحسن والحسن معه . وأقاما يعملان في داره . واتفق أن قدم الأهواز  
والبة بن الحباب الأسدي الشاعر قاصداً للأمير - وهو ابن عمه - فمدحه وأقام  
عنده . ووقع نظرُ الشاعر الغزل الماجن على « الحسن » فاستحلاه وأعجب

بظرفه . ثم خاطبه ووصل معه الحديث ، فسرّه ما كان عليه « الحسن » من الذكاء والمعرفة ، ولم يلبث أن اطلع منه تعلقاً بالشعر ، ورغبةً في الاقتدار عليه ومجاراته صاغة القريض ورواض القوافي من الشعراء المذكورين .  
فقال له : « إني أرى فيك مخايلَ فلاحٍ ، وأرى لك ألا تضيعها .  
وستقول الشعر وتلوفيه . فاصحبنى حتى أخرجك » .

فتطلع الفتى متشوقاً إلى هذا الذي أحسن الظن باستعداده ، وقطع على نفسه العهد الأكد بتخريجه . ولم يملك أن سألته مبتدراً : « ومن أنت ؟ » .  
قال : « أبو أسامة » . فهتف الفتى : « واليبة ؟ » . قال : « نعم ! » .  
فهلل الفتى وفاض قلبه بما كان يخالجه زمناً : « أنا والله - جُعأتُ فذاك - في طلبك ، وقد أردت الخروج إلى الكوفة وإلى بغداد من أجلك » .  
قال الرجل متعجباً مغتبطاً : « ولماذا ؟ » .

فاسترسل الفتى سابح النظرة فائر النفس : « شهوةً للقائك ، ولأبياتٍ سمعتها لك » . قال : « وما هي ؟ » .  
فأنشد الحسن بصوت حلو الثغ ، يجعل الرء غينا ، وفي نبرته حرارة الإعجاب وهزة التأثر :

ولها - ولا ذنب لها - حُبُّ كأطرافِ الرماحِ  
جرحتُ فؤادك بالهوى فالقلبُ مجروحُ النواحي  
فازداد والبة حباً وعجباً .

وكان والبة مذكوراً في البصرة ، وقد شاع ذكره واستطارت شهرته فيها لقدمه في جملة من قدموا على « محمد بن أبي العباس السفاح » حين ولاة عليها الخليفة أبو جعفر المنصور في سنة ١٤٧ بعقب مقتل إبراهيم العلوي . فلقد ورد العامل الجديد ومعه جماعة من الشعراء والمغنين ، وأصبحه عمه المنصور - داهية بني العباس - قوماً يُعاب بصحبتهم ومجاناً زنادقةً ، ليبغض ذلك منه فيرتفع ابنه المهدي عند الناس . وكان « محمد بن أبي العباس » يغلف لحيته بأواقٍ من الغالية فتسيل على ثيابه فتصير مسمرّة حتى لقبه أهل البصرة « أبا الدبس » . وكان ممن يُغنّونه دُحمان وحكم الوادي ويشترك معهما أحياناً مؤدبه الخليل حماد عجرد في جماعة من ندمائه منهم والبة ، وهم جميعاً يشربون ، فيسكر ويسكرون ، ويغلبهم السكر فينامون في مواضعهم . وكان الأمير « محمد » قوى البنية شديداً نهايةً في الشدة ، فكان أول من يفتيق منهم . وكان يهوى « زينب بنت سليمان بن علي » فاذا شرب غنّوه بما قال - أو بما قال حماد عجرد على لسانه - تشبيهاً بها فيطرب ويضرب برجله . وكان يأنس أشد الأنس بوالبة ، ويسكن إلى ظرفه وخفة روحه ، ويستحسن شعره ووصفه للشراب ، حتى يؤثر عن ذلك في البصرة أن حكماً المغني دخل عليه أيام ولايته بها ، وكان يوم نيروز ، فاذا به يتململ خماراً ويبيده كأساً وهو يجتهد في شربها فلا يطيقها ، وندماؤه بين يديه وفي أيديهم أقداحهم . فقال « يا حكم غنّني ، فإن أطرقتني فلك كل ما يهدى إلي اليوم »

وكان بين يديه من الهدايا أمرٌ عظيم . فعمد الحكم إلى أبياتٍ لوالبة ، فاندفع  
يغنى بها :

قد قابلتنا الكؤوسُ ودابرتنا النجوسُ  
واليوم هو نيروزُ قد عظمته الجوسُ  
لم تُخطِه في حسابٍ وذاك مما تسوسُ

فطرب الأمير لها ، واستعادها ثلاث مراتٍ ، وعبّ قدحه ، واستمر في  
شربه . وأمر لمطربه بأن يحمل إليه كلُّ ما كان بين يديه .

وكان هذا وغيره من الأخبار والأشعار يشيع عنه في البصرة ويتسامع  
به أهلها ، حتى صار حديث ظرفائها في تلك الأيام . فوقع الحسنُ - ولا جرم -  
تحت تأثيرها ، وأخذته شهرةُ الرجل بسحرها . فلما التقى به ، كان تِلْقَاءَهُ  
كالنومِ خدرِ النفسِ مضععِ الحسِّ مسلوبِ الإرادة . فلم ينشب والبة أن  
أخذته حتى صار معه إلى الكوفة .

ورد الغلام مع أستاذه إلى الكوفة ، فطالعه من جانبها الشرقي فنجيلٌ  
ملتفةٌ متصلةٌ تمتد امتداد البصر ، وألفاها أطف من البصرة حرًّا ، وألفى  
الهواء فيها أصحَّ ليس بالرطب التقييل ولا بالذي يختلف في اليوم الواحد ،  
وهي كذلك أطيب ريحاً بما في سوادها من الورد والياسمين والأترنج ، بخلاف  
البصرة إذا هبت الجنوب على أرضها الناشئة السبخة . والكوفة مرتفعةٌ عن  
البصرة معظمها على الفرات ومنه شربُ أهلها . ويأتيها الماء بعدو بته وبرده ،  
ولا يأتي البصرة إلا بعد تغييره وفساده مع ما يصيبه من الملح الذقاق إذا كان

المدُّ في الخليج الخارج من بحر فارس . ومع هذا كله فقد رأى الحسن - وإن كان قد احتفظ بما رأى لنفسه ولم يصرح لوالبه وصحبه - أن البصرة حيث مدرج طفولته ومعهد صباه لم تنزل أحبَّ إلى قلبه وأحلى في عينه من أختها الكوفة ، وأنها أقوى منها عمارةً ، وأكثر خلقاً وأزحم قدماً وأدوم حركةً ، كما أنها أشد تنوعاً وأبهج مجلى ، أوتيت من كلِّ حلّ وزينة . وكان والبة بن الحباب على قولهم في نسبه - أسدياً صليبية . ولكنه كان مع ذلك أشبه بالموالي الروم منه بالعرب ، فهو أشقر ، أبيض اللون محمره ، ذهبي الشعر - كما تدل عليه صفتُهُ في هجاء أبي العتاهية له وتهجينه لنسبه إذ يقول من قصيدة :

وابن الحباب صليبية زعموا ،      ومن الحبال صليبية أشقر  
ما بال من أبائه عرب الألا      وان يُحسب من بنى قيصر  
أترون أهل البدو قد مسخوا      شقراً؟ أما هذا من المنكر؟  
أكذا خلقت «أبا أسامة» ، أم      لَطَّخت سالفتيك بالعصفر  
مالي رأيتُ أباك أسودَ غر      ييب القذال كأنه زرزُر  
وكان وجهك حمرة رئةً      وكان رأسك طائرُ أصفر  
ومن قصيدة أخرى :

أوالب ! ما دهاك ، وأن      ت في الأعراب ذونسب ؟  
أراك وُلدت بالمريِّ      نخ يا ابن سبائك الذهب  
فجئت أقيشر الخدي      ن ، أزرق ، عارم الذنب

هَمَّ إِلَى الْمَوَالِي الصِّبِّ د فِي سَعَةٍ وَفِي رَحَبٍ .  
فَأَنْتَ بِنَا - لَعْمَرِ الْه - أَشْبِهَ مِنْكَ بِالْعَرَبِ  
وَأَهَاجِي الشُّعْرَاءَ فِي وَالْبَةِ كَثِيرَةً ، وَأَكْثَرَهَا فَاحِشٌ مُقَدِّعٌ كَالَّذِي  
هَجَّاهُ بِهِ « سَلْمُ الْخَاسِرِ » - وَهُوَ رَاوِيَةٌ بِشَارٍ وَتَلْمِيذُهُ - لِمَا كَانَ عَلَيْهِ وَالْبَةِ  
مِنَ الْمَقَابِحِ وَالْمَقَادِرِ الْخَلْقِيَّةِ . وَكَانَ وَالْبَةِ أَبْعَدَ مَا يَكُونُ عَنْ مَلَازِمَةِ أَهْلِ الْجِدِّ  
مِنَ الْعُلَمَاءِ وَالْفُقَهَاءِ وَالْمُحَدِّثِينَ وَأَصْحَابِ الْاجْتِهَادِ فِي الدِّينِ مِمَّنْ اشْتَهَرُوا فِي مَدِينَةِ  
الْكُوفَةِ الْجَلِيلَةِ ، وَفَاخَرَتْ غَيْرَهَا بِهِمْ . وَإِنَّمَا كَانَ يَجْتَمِعُ إِلَيْهِ فِي الْكُوفَةِ  
جَمَاعَةٌ مِنْهُمْ مَطِيعُ بْنُ إِيسَى ، وَحَمَّادُ عَجْرَدٍ ، وَيَحْيَى بْنُ زِيَادِ الْحَارِثِيِّ مِنْ  
مُخَضَّرِي الدُّوَلَتَيْنِ الْأُمَوِيَّةِ وَالْعَبَّاسِيَّةِ ، وَهُمْ فَوْقَ عِبْتِهِمْ بِالْجَوَارِيِّ وَالْإِمَاءِ  
يَعْدُونَ أَقْدَمَ الْمُتَهْتِكِينَ فِي تَعَشُّقِ الْعُلَمَاءِ مِنَ الشُّعْرَاءِ . فَيَتَنَادَمُونَ فِي بَعْضِ  
دَوْرِهِمْ عَلَى الشُّرَابِ وَالْغِنَاءِ ، وَيَتَنَاشِدُونَ الشُّعْرَ ، وَيَسْكُرُونَ فَيَعْرِبِدُ بَعْضُهُمْ  
عَلَى بَعْضٍ أَقْبَحَ الْعَرَبِيَّةِ وَيَتَهَاجُونَ هَزْلًا وَعَمْدًا أَخْفَشَ الْمَهْجَاءِ . وَكَانَ أَهْلُ  
الْفَنِّ لِدَلِكِ الْعَهْدِ يَتَعَاشَرُونَ فَلَا يَكَادُونَ يَفْتَرِقُونَ ، وَيَتَشَارِكُونَ فَلَا يَكَادُ  
يَسْتَأْثِرُ أَحَدُهُمْ عَلَى صَاحِبِهِ بِمَالٍ وَلَا مَلِكٍ حَتَّى الْجَوَارِيِّ وَالْعُلَمَاءِ . وَلَا عَجَبٌ  
فَكُلُّهُمْ خُلَعَاءُ مَجَّانٍ مُسْتَهْتَرُونَ ، لَيْسَ فِيهِمْ إِلَّا مُتَطَرِّفٌ مَذْسُوبٌ إِلَى الزَّنْدَقَةِ  
خَيْثُ الْعَقِيدَةُ مَتَّهَمٌ فِي دِينِهِ . فَلَمَّا قَدِمَ وَالْبَةُ إِلَى مَوْطِنِهِ وَمَعَهُ الْحَسَنُ ، وَجَّهَ  
إِلَى أَصْحَابِهِ وَنَدَمَائِهِ ، فَجَعَلَ لَهُمْ مَجْلِسًا احْتِفَاءً بِتَلْمِيذِهِ ، وَلَبَّشُوا أَيَّامًا فِي صَبُوحٍ  
وَعَبُوقٍ ، يَسْرُونَ وَيَتَازَحُونَ وَيُنشِدُونَ الْأَشْعَارَ .  
وَكَانَ وَالْبَةُ مَا جَنَّ طَبْعًا . وَكَانَ مِضْيَاعًا مُتَخَرِّقًا فِي النِّفَقَةِ عَلَى الْجَوَارِيِّ

والعلمان ، وعلى بواطى الخمر المعتقة مبدولة للشرب المنادين ، وعلى الخوان  
ممدوداً للإخوان المؤاكلين . حافلاً بكل ما لذ وطاب من غير حساب . وهو  
مع هذا ليس بالعظيم الثراء ولا الموسع عليه في العطاء ، فلقد فاتته الحظ في منادمة  
الخلفاء ، مع ما يؤثر من استحسان المهدي لبعض أشعاره ، كراهة منهم  
لإسفافه في أكثر قوله ، واشتهاره بين الناس بالفاحشة القذرة واستهتاره  
فيها . وإنما كان يقصد إلى من يشاكله من عمال الأمصار ، وهؤلاء كانوا  
لا تدوم لهم دولة . ولا يُقامون بعملهم حتى يُصرفوا عنه ويُرأوا . فلم يكن  
له من معول على غير المجدودين من أقاربه ، ثم من هم أكثر منه حُطوةً أو  
أقل تبذيراً من أقرانه . ومن ذلك ما ذكرناه من قدومه على ابن غمّه أبي بجير  
الأسدي عامل الأهواز ، ثم ما نحن ذا كروه من قصده إلى الشاعر حماد عجرد  
يطلب إليه بعض المال ، فلما أنظره لم يأنف من العودة إليه . ويقول الرواة  
في ذلك انه سأله عما وعد ، فقال حماد « لم أصنع شيئاً » ، فدعا والبه بدواةٍ  
وقرطاس وأملى من كتب له هذه الأبيات :

حماد ما كانت عدا تك بالعدا الكاذبه  
فعلام ، ياذا المكرما ت وذا الغيوث الصائبه  
أخرت - وهى يسيرة فى الرد - حاجة « والبه »  
فأبو أسامة حقه أحد الحقوق الواجبه  
فاستحى من ترادده فى حاجةٍ متقاربه  
ليست بكاذبة ، ولو والله كانت كاذبه

فقضيتها أحمدت غيب قضائها في العاقبة  
وبديهي أن حماد عجرد إنما يسمع لأول مرة من يمدحه وينعته نعت  
ذوى المكرمات الضافية والغيوث الصائبة ، فلا غرو أن قيل بعد ذلك إنه قضى  
للمادح حاجته وزيادة .

وكان والبة يكثر من الخروج للنزهة ومعاقرة الخمر في دساكر طينناباد  
بين الكوفة والقادسية ، فيظل يشرب حتى يسكر ، ولا يفيق من السكر إلا  
ليعاود الشرب ، ويقوم على ذلك أياما لا يكاد يصحو . وقد صحبه « الحسن »  
إلى هذه الأماكن يتنزه معه ويشرب ، وكان والبة لا يتي يغمز عليه الساقى  
فيسقيه حتى يتلف ، فإذا هو إلى جانبه سكران لا يعقل ولا يعي ما يفعل ،  
قد خلع الحشمة ومجن . ولقد ذهب ذات مرة في المجون أن جعل والبة في  
سكره يقبض على السكين ويهم بقتله ، لولا ما أظهر الفتى من سرعة المبادرة  
واستحضاره لمثل من الأمثال العائرة ضحك له أستاذه الخليع . وظل والبة  
على هذه الحال مع تلميذه يحيف عليه بالشراب ويغريه بالمجون والاستهتار ،  
حتى تم له مراده من توهين خلقه وإفساده .

وإذا كانت هذه المعاشرة لوالبة وأصحابه قد علمت « الحسن » الفساد  
والعهر ، فقد هيأت له الاتصال بالشعراء ، وحفزته منادمتهم في مجالس السكر  
إلى النطق بالشعر . ومما يروونه في ذلك أنه اجتمع وهو صغير في صحبة أستاذه  
بالأقطاب الثلاثة حماد عجرد ومطيع بن إياس ويحيى بن زياد ، فقالوا « ليكن  
مينا اجتماع في دار أحدنا » .

وقال حماد :

يا إخوتي عندي لكم بطة<sup>(١)</sup> ودنُّ خمر من رَساطون<sup>(٢)</sup>  
ولحم طَيْرٍ وأتايعة<sup>(٣)</sup> فإن نَشِطُم فأجيبوني

وقال مطيع :

اللهو عندي جميعاً حديثه<sup>(٤)</sup> وعتيقه<sup>(٥)</sup>  
وقرطقي<sup>(٦)</sup> شهى<sup>(٧)</sup> يفوحُ منه خلوقه<sup>(٨)</sup>  
والخمر عندي عتيق<sup>(٩)</sup> يشفي القلوب غبوقه<sup>(١٠)</sup>

وقال يحيى بن زياد :

عندي نبيذٌ معسلٌ والموصليُّ وزلزَل<sup>(١١)</sup>  
وبطّةٌ وخروفٌ وماءٌ مُزِنٌ مزملٌ  
وبرَبْطٌ وصنُوجٌ<sup>(١٢)</sup> وصوتُ نايٍ وجُجُل<sup>(١٣)</sup>

وعندها التفتوا جميعهم إلى « الحسن » كأنما له - وهو الصغير الغريب

بينهم - دارٌ ومالٌ مثلهم، فأرتج عليه لحظةً ثم ضحك وقال :

لا تطمعوا في شرابي فتحصّلوا في السراب  
فدون خبزي ولحمي والخمر شيبُ الغراب

(١) لفظ رومي معرب وهو شراب يتخذه أهل الشام من الخمر والعسل (٢) قرطقي أي نديم يلبس القرطق وهو ضرب من القباء من زى العجم (٣) ضرب من الطيب .  
(٤) الشرب بالعتى (٥) الموصلي وزلزَل من أعلام الموسيقى والغناء  
(٦) البربط نوع من العيودان والمزاهر - والصنج صفيحة مدورة من النحاس الأصفر  
تضرب على أخرى مثلها للطرب ، أو آلة للطرب لها أوتار . .

ومضى الحسن يشاركهم بالبيتين والثلاثة كلما تنادوا على الشراب .  
وكان ينعتدهم في كل يوم مجلس من هذه المجالس في عقر دورهم أو على  
سطوحها أو في ظاهر المدينة بين البساتين أو في بيوت الخمارين . ولقد أفاد  
الفتى من ذلك مرانةً على النظم وقدرةً على الارتجال ، وصار في مقدوره كلما  
شاء أن يكون كلامه كله شعراً بغير جهد ولا معاناة . خرج يوماً مع والبة من  
الكوفة يريدان الخيرة وكانا يمشيان وأرجلهما تغوص في الرمل وقد جاعا، فدار  
بينهما من المقال ما يدور في أمثال هذه الحال إلا أنه شعر<sup>(١)</sup> :

الحسن : ياليت فيما بيننا سِتَّةٌ أرغفةً ما بينها وَزَةٌ  
والبة : من وَرَأْرُضِ الصَّيْنِ يُؤْتِي بِهَا مشويةً تتبعا رَزَةٌ .  
الحسن : خوذابة<sup>(٢)</sup> ، تُوْخَذُ مِنْ بَعْدِهَا خمرٌ من الخَيْرِيَّةِ المُرَّةِ  
والبة : يُدِيرُهَا سَاقٍ وَقَدْ شَاهَبَا مِنْ مَاءِ مَرْزَنِ صَوْبٍ مُؤْتَرَّةِ<sup>(٣)</sup>  
الحسن : طاب لنا العيش ولكننا أرجلنا في الرمل مرترَّة<sup>(٣)</sup>

وجمالة القول ، أن تواتر هذه المناديات والمطارحات ، كان داعياً للحسن  
على شحذ قريحته وإيقاظ ملكته إلى إدراك المعاني واقتناضها ، والاستعداد  
لها باللفظ المناسب والقالب المحكم . فكان في كل يوم يزداد تمكناً من فنه ،  
ويزداد معه ثقةً بنفسه . فلم يقف عند المحاكاة والاقتراء ، بل جعل  
يجاذب الجماعة ويباريهم ، ويطاولهم ويستقلّ عنهم .

(١) طعام يتخذ من سكر ورز ولحم (٢) سحابة قائرة (٣) مغرورة ثابتة

## صوت الصبا

كانت الكوفة في ذلك العهد مشهورة مذكرة عند أهل السماغ بقيانها الحسان الضاربات بالعود الحاذقات بالغناء . وكان أجلّ المقينين بها وأكبرهم عبد الملك بن رامين ، ومن جواريه سلامة الزرقاء وسعدة وربيحة وغيرهن . وقد قال الشعراء فيهن وأعادوا القول يذكرهن بالحسن وحلاوة الصوت وأفانين الصناعة . وكانت ربيحة سمراء مجدولة وسعدة بيضاء لينّة . وكانت أوفرهن حظاً سلامة الزرقاء وكانت تخرج إلى المعجبين بها في إزار ورداء قوهيين<sup>(١)</sup> موردين كأن الشمس طالعة من بين رأسها وكتفيها ، وقد أشال نهودها ثوبها عن صدرها ، ولها كالشارب وبرّ خفيف مخضراً تمتدّ على شفتها ، وكانما خُطت طرّتها وحاجباها بقلم ، فلا يبرح يلحظها الطرف ، ويقصر عن كل ضرب من ضروب حسنها الوصف .

وهؤلاء الجوارى القيان قد شُهر بهنّ الكثيرون من فتيان وشيب ، منهم الشعراء وأهل الأدب وأصحاب الإمارة . وكانت تبذل أموال عظيمة في شرائهنّ ، أو من أجل قبلة ، أو ابتسامة رضا منهنّ . ولقد عرض بعضهم لؤلؤتين ، نقدَ فيهما بالأمس أربعين ألف درهم ، ولم يشرط على القينة ليكونا لها إلا أن

(١) نسبة الى قوهستان

تأخذها بشفتيها من شفتيه . وكان ممن يجتمعون عند ابن رامين معن بن زائدة وابن المقفع وروح بن حاتم المهلبى ، فذكر الرواة فيما ذكروه عنهم أنه فى مجلس سماع من هذه المجالس تغتت الزرقاء ، فبعث معن إليها بادرة فصبت بين يديها ، فبعث روح إليها أخرى فصبت بين يديها ، ولم يكن عند ابن المقفع دراهم فبعث بصك ضيعته .

ولم يكن منزل ابن رامين وحده المشهور بقيانته ، بل كان مثله منزل الشيخ زريق بن منبج مولى عيسى بن موسى . وكان يجتمع إليه أشرف الكوفة من كل حى . وكان بين المنزلين منافسة تظهر فى حرصهم على مرضاة هذا الشاعر أو ذلك لما فى الشعر من حسن الدعاية .

فى هذا العهد من التولع بالغناء والمغنيات كان مقدم «الحسن بن هانىء» الفتى مع أستاذه والبة على الكوفة فى سنة ١٥٦ أو نحو ذلك . فلا غرو أن كانت مجالس اللهو والشراب التى كان يعقدها هنا والبة وأصحابه لا تخلو فى بعض الأحيان من الجوارى القيان اللواتى على شاكلتهم ، من كل ماجنة مهتكة ، أديبة متظرفة ، وقاح الوجه سليطة اللسان . فكن يعاطين هؤلاء الجمان الراح ، ويستحثن إليهم الأقداح ، ويسابقنهم إلى الشرب ويجالسهم متبذلات ، ويطارحنهم المجون والبذاء ، فضلا على اللعب بالعود والغناء . ولعل الحسن كان يشاركهن ، فقد كان من صغره مولعا بالعود يضربه . ومضت على ذلك أيام وأيام . ولا ندرى بعدها أكانت المصادفة ، أم دراية هؤلاء النسوة الجربات بما عليه الرجال من حب التجديد والاستطراف

وواع الكبار منهم بالصغيرات خاصة ، هي التي شاعت لمن أن يصحبن معهن إلى المجلس طفاة كاعبا . وكان معظم اللواتي يغشين المجلس ممن تجاوزن غرارة الشباب وأدركهن النضج ، ممتلئة أجسامهن ، ثقال روادفهن وافية تقاطيعهن وأعطافهن ، وقد طالت لمن بالرجال ملابسة وخلطة ، وقتلن الحب معرفة وخبرة ، حتى صرن أفتن نشاطاً وأثقل نهضة وأسكن حركة مع فجزورهن وخلاعتن ومع ما يبيدينه من تصنعهن وتكسرن وكثرة تضاحكن . وأما الضيفة الغريرة الصغيرة السن فإنها تختلف عنهن : مهففة القوام ، طويلة خوط المتن ، لا يكاد يبين لنهديها حجم ، مسترسلة الأعطاف ، غلامية الأرداف ، فهي إلى الغزال أقرب منها إلى المهابة . وكانت خفرة مسبلة الهدب غضيضة الطرف ، خدّها من الحياء كجنى الورد ، وكأنه أول خروج لها من خدرها . ولقد تلتقتها الجماعة لقاءهم لغيرها بالمرح والعبث شأن أهل اللهو ، إلا « الحسن » شدّ عنهم في هذه المرة ، وكأنما أنسى ما أخذه عنهم من العربة والمجون . فبقى معهم سواد الليلة ساها محتشبا على غير عادة ، مع أنه حاف على نفسه في الشرب وأكثر فوق العادة . ولما أظهر القوم عجبهم له اعتذر بوعكة خفيفة به . ولو لم يُلبهم عنه ما ثم فيه من السكر لألفوا الفتى في وجومه يلحظ الفتاة ويختلس إليها النظرة ، وهي على حياتها لا تحسو من قدحها بعد اللجاجة والإلحاف إلا النغبة بعد النغبة مستكرهة للشرب لم تتعوده تعود المتوفرات على مجالسه .

وقضى الجماعة والجواري سهرتهم على المألوف من سنتهم في المعاقرة  
والقصف ، حتى غار النجم وبدأ فلق الصبح ، فاستقبلوه بالصبوح ثم تفرقوا .  
وغابت الفتاة فترة ، فأخذ الفتى يستطيل غيبتها ويديم التفكير فيها . ولعل  
الذي وصلها بقلبه ما بينهما من تقارب العمر ، وتلك الغرارة التي لم يعرفها فيمن  
لقيهن من النساء حتى لقيها . وإنه ليحس نحوها بشيء لا عهد له به ، يسرى  
في كيانه وينساب إلى وجدانه ويمزج بأجزاء نفسه ويخالط قواها .

ثم تكررت مصاحبة الفتاة للجواري في زوراتهن ، و « الحسن » يزيد  
اشتغالا بها كل يوم ، حتى لقد أسهرت ليله وأرقت عينه ، واشتدت به الحال  
وساءت صحته وشفة السقام . وزاد في بلائه كما زاد في عجبه أن رأى فتاته  
لم تنشب أن تعودت الشرب حتى انسابت مع الجماعة ، منصرفاً عما كان  
يبديه لها من جدّ الحب ، مؤثراً لما هم بسبيله من متاع القصف واللهو الصاخب  
وانظوى الفتى على نفسه وعكف على يأسه وازدحمت في خاطره المعاني ،  
فتحركت شاعريته وانبعثت ملكته ، وجرت قريحته بأول ما جرت به من  
شعر وجداني صادر عنه غير مقترح عليه :

حاملُ الهوى تعبُ يستخفه الطرب<sup>(١)</sup>

إن بكى يحقّ له ، ليس ما به لعب

تضحكين لاهيةً والمحب ينتحب

(١) ذكر ابن خلكان أن هذه الأبيات أول ما قاله الحسن من الشعر وهو صبي .

تعجبين من سقمى صحتى هى العَجَبُ  
كلما انتفى سببٌ منك ، جاءنى سبب

ثم غابت الفتاة بعد مدة وانقطع خبرها ، كما غابت من النساء غيرها  
وحلت أخريات محلها ، شأن من يتعرض لهذه الحياة الطائشة المتقلبة  
وينزلن فى غمارها .

ولكن الفتى وقف هنا وقفة ، ولم تعبر به هذه الواقعة إلا بعد توكيد العبرة .  
فقد اقترن فى نفسه ما كان من أمه وتفريطها فيه وهو صغير إثارةً للتبعل ،  
ثم ما كان وهو شاب من هذه الفتاة الغريرة وانصرافها بطبعها عن جدِّ العاطفة  
إلى هزل الحياة وهوها . فاجتمع له فى بداية تكوينه من هذين رأىً فى « المرأة  
والحب والحياة » بقى فى نفسه وحسّه مثل وسم النار لا ينمحي آخر العمر .  
ولقد استأنف الفتى عيشته ، ولكنه استأنفها غير مقبل عليها ولا ملتذِّ  
طعمها . والذكري تراجع ، وخيال الفتاة يعاوده . ومن كان مثله فى سنّ  
العشق ، لا بد أن يتحرّق من لاعج شوق . ومهما يكن فى هذه السن من غلبة  
الطبيعة وتيقظ الحس ، فإنها أيضا أوان تفتح العاطفة والاستجابة الوجدانية  
لدواعى النفس .

وكان من تطاول الأيام وتعاقبها عليه أن خلصت واقعة جبه الصبيانى من  
ملابسها المادية ، وتحولت صورة الفتاة فى مخيلته صورة بغير هيولى ، وصارت  
فى باطن وعيه وقرار سريره كالمثل المجردة فى عالم المعانى

واتفق وهو في هذه الحال أن قدم بصحبة والبة إلى منزل محمد بن سيار  
ابن يعقوب، ولديه قيانٌ أخرجهم لقدمائه ، وجلس ابنه في صفين وكان جميلاً  
رائعاً في العين مع حسنٍ موقعٍ في النفس . فكان من فيض خاطر «الحسن»  
وسبحاته العبقريّة إنشاؤه لهذه الأبيات اللطيفة الروحية .

يا ظبي ابن سيارٍ      وزيرٍ ، صفّ القيانِ  
خُلقتَ في الحسنِ فرداً      فما لحسنك ثابِ  
كأنما أنت شيءٌ      حوى جميع المعاني  
لَيَنفِستك وهمي      إن كلَّ عنك لساني

واستفاضت للحسن بهذه الأبيات وغيرها شهرةٌ في بعض أوساط  
الكوفة ، فاتصل به أدباؤها ورغبوا في صحبته ، فشاهدوا منه أدباً جماً ، وكبراً  
في أعينهم وعظم موقعه عندهم . وكان أشدهم شعوراً بعظم استعداده وما هو  
مدخر له في مستأنف حياته ، أستاذُه والبة بن الحباب ، حتى عرض ذلك له  
في الأحلام .

فانه - فيما يرويّه عن نفسه - يقول : كنتُ نائماً ذات ليلةٍ ، والحسن إلى  
جانبي نائمٌ ، إذ أتاني آتٍ في منامي . فقال الهاتف : « أتدرى من هذا النائم  
إلى جانبك ؟ » . قلت : « لا » .

قال : « هذا أشعر منك وأشعر من الجن والإنس . أما والله لأفتنن  
بشعره الثقلين ، ولأغرّين به أهل المشرق والمغرب » .

فعمت أنه إبليس . فقلت له : « فما عندك ؟ »  
قال : « عصيتُ ربي في سجدة فأهلكني ، ولو أمرني أن أسجد لهذا  
ألف سجدة لسجدت » .

ولم يكن « الحسن » ليخفى عليه موضع الإحسان في قول ، فكان من ذلك  
أنه على صغره لم يأخذه الشك في شعره ، بل توكدت معرفته لقدره ، ولم ير  
عليه لأحد ممن حوله كبير تقدم ومزية . فأدركته أنفة من الحياة التي يحياها  
مع والبه . فاعتزم الرخيل ، وآذنه به ، معذراً بالخروج مع وفد بني أسد إلى  
البادية في طلب شوارد اللغة والأحاطة بغربها والتمكن من مذاهب الأعراب  
في الجزالة وفحلى الكلام .

## أثر البادية

أقام « الحسن » في البادية سنةً أفادت روحه في أثناءها مسحةً من روحها  
واكتسب من صحة جوها بعض الصحة في جسمه ونفسه ، وزادت حياة  
الفطرة من ذقة ملاحظته ورهافة حسه . ثم عاد إلى البصرة من بعدها مثقل  
الجعبة من مآثور بلاغاتها وفرائد عباراتها وأراجيزها ومقطعاتها . ولقد احتقب  
خياله فوق ذلك الكثير من مناظر البادية ومجالي جمالها ، وتعرف أرضها  
وسمائها ونباتها وحيوانها ، حتى أصبح أعرف أهل الحضرة بها وأبصرهم بحالها  
وكانت هذه الخبرة عتاده فيما نظم بعد ذلك من القصائد العصماء في بابي الصفات  
والطرديات .

وتلقى أهل البصرة عودة « الحسن » بالتعجب والتساؤل ، لما كانوا  
يعهدون عنده من فرط الإعجاب بوالبة وتغنييه بشعره ولهجه بذكره قبل أن  
يلقاه ، وكان ظنهم وقد لقيه أنه غير مفارقٍ له العمر كله . فكان « الحسن »  
أول عودته يسمع في كل خطوةٍ من يقول له بعد تحيته : « أرغبتَ عن والبة  
ومللت الكوفة ! ! » فيجيب موجزاً متأدباً : « هي أجدي وأطيب من أن

تملّ ، ووالبة ممن لا يُرغَب عنه ، ولكنّي نزعْتُ الى الأوطان واشتقتُ  
الى الإخوان »

واستأنف « الحسن » في البصرة حياة الدرس والتحصيل . وكان حلقات  
الشعراء بالبصرة موضعان : موضع بالربد ، وموضع بالمسجد ، وكان الحسن  
يفشاهما ولكنه لم يكن يقصر غشيانه عليهما ، بل أقبل على كل فن وعلم . وقد  
بلغ من ذلك أن تحدّث عنه جماعة من الرواة ممن شاهدوه في مستقبل أيامه  
فقالوا : « كان أقلُّ ما في الحسن قول الشعر ، فقد كان فخلاً راوية عالماً » .  
والبصرة أسبق عهداً من الكوفة بنهضة النحو واللغة والأدب ، وعلمائها  
من أرسخ الناس في العلم قدماً وأغزرهم مادة وأولاهم بالثقة وأصحهم سنداً ،  
مع ما كان من ظهور الكوفيين وقتئذ ، وتقريب خلفاء بني العباس لهم واتخاذ  
المؤدّبين لولدهم من بينهم ، جزاء نصرتهم إياهم والسرعة الى تلبية الدعوة دون  
أهل البصرة حين قاموا لطلب الخلافة . وجعل الحسن يختلف إلى حلقات  
الدرس التي كان يختلف إليها قبل سفره ، يأخذ عن هؤلاء العلماء الأعلام  
أنفسهم ويأخذ عن غيرهم . وأقبل كذلك على نحو سيبويه ينظر فيه ، وكان  
كتاب سيبويه آية العصر لم يسبق أحدٌ الى مثله ، وامتنع في اعتقاد القوم  
أن يلحقه أحدٌ من بعده ، فهو الإمام فيه ابتدعه لا على مثال . وكان قد بلغ  
من شهرة كتاب سيبويه أن كان يقال بالبصرة « قرأ فلان الكتاب » فيعلم  
أنه كتاب سيبويه ، و « قرئ الكتاب » فلا يُشكّ أنه كتاب سيبويه ، وكان

أشرف هدية تهدي إلى أهل العلم . وكان القوم كلهم على تعظيمه واستصعاب ما فيه . فلا عجب أن نرى المترجمين للحسن يحرصون على ذكر قراءته له ونظرة فيه .

ولم يكن بين أساندة « الحسن » بعد عودته من الكوفة إلى البصرة من لزمه الفتى وأفاد منه مثل « خلف الأحمر » . ولا جرم ، فقد كان شاعراً يعاني نظم القريض ويحسنه ولم يكن مجرد عالم بالشعر راوية له . وإذا كان الأقدم في أسناده والبة بن الحباب ، فإن خلفاً الأحمر كان هو الأكثر تأديباً وتخریباً له .

و« خلف » أول من أحدث السماع بالبصرة ، وكان أوسع الرواة روايةً لأشعار البادية . ولقد كان الناس من قبل ، وما هم على شيء أحرص منهم على نسيب « العباس بن الأحنف » الشاعر الغزل المعاصر ، فما هو إلا أن أورد عليهم خلف الأحمر نسيب الأعراب حتى صار زهدهم في نسيب العباس بقدر رغبتهم في نسيب الأعراب<sup>(١)</sup> . وكان خلف يقول الشعر فيجيد ، وربما نحلله الشعراء المتقدمين فلا يتميز من شعرهم لمساكلة كلامه كلامهم . ولكنه انقطع منذ نسك عن تزوير الكلام ، واشتهر بصدق اللسان حتى كان سامعوه لا يبالون إذا روى خبراً أو أنشدهم شعراً إلا يسمعه من صاحبه . وليس أدل على عقيدة شعراء العصر بأنه أفرس الناس بيت شعرٍ ، من احتكام بعضهم إليه واستنصاحهم إياه . ولقد شاع في ذلك قول مروان بن أبي حفصة له : « نشدتك

(١) البيان والتبيين للجاحظ .

الله يا أبا محرز ، إلا نصحتني في شعري ، فإن الناس يُخدعون في أشعارهم » .  
كما شاعت قصة ابن مناذر الشاعر وقد حضر مأدبة كان فيها خلف الأحمر  
وتلميذه الأصمعي . فقال الشاعر لخلف : « يا أبا محرز ! إن يكن النابغة  
وامرؤ القيس وزهير قد ماتوا ، فهذه أشعارهم مخلدة . فقس شعري إلى شعرهم  
واحكم فيها بالحق » . فغضب خلف لهذه الدعوى العريضة . ثم أخذ صفحة  
مملوءة مرقا فرمى بها عليه ، فقام ابن مناذر مغضبا ، ولعله هجاه بعدها من  
جراه ذلك .

ولم يكن خلف الأحمر ضنينا بشيء من أدبه على تلميذه « الحسن »  
وإذا كان والبة قد جرأه على الشعر كما جرأه على السكر وهو غلام ماطر  
شاربه بعد ، فإن خلفا في تعصبه للجزالة وجودة السبك وتنطسه في النقد ،  
عمل على كف جماحه وألزمه التريث والتثبت واستكمال أدائه وتقوية ملكته  
قبل كل شيء ، وأعلنه بقوله : « لا آذن لك في عمل الشعر إلا أن تحفظ  
ألف ماثور للعرب ، ما بين أرجوزة وقصيدة ومقطوعة » . فعكف الحسن  
يتلقفها من فيه ومن أفواه سائر الرواة ، وكان سريع الحفظ قوي الذاكرة ،  
فوعاها في مدة غير مديدة ، وجاءه يقول : « قد حفظتها » . فجعل خلف  
يستنشده وهو ينشده حتى أتم أكثرها في عدة أيام ، وكان يؤديها عن ظهر  
قلب لا يخرم منها حرفا . فلما أظهر الأستاذ أن ذلك حسبه وأن الذي أداه  
التلميذ فيه مقنع وأي مقنع ، عاد الحسن يسأله أن يأذن له في نظم الشعر .  
فاذا الأستاذ قد عاد يقول له : « لا آذن لك إلا أن تنسى هذه الألف الأرجوزة

كأنك لم تحفظها» وكان الفتى جيد الحافظة بعيد النسيان ، فاحتج متعجباً :  
« هذا أمرٌ يصعب علىّ ، فأني قد أتقنت حفظها » فأصرَّ الأستاذ : « لا آذن  
لك إلا أن تنساها » . فذهب الحسن إلى بعض الديرة خالياً يتفرج  
وأقام مدةً حتى نسيها . ثم حضر فقال مؤكداً : « قد نسيتهما حتى كأن لم أكن  
حفظتهما قط » . عندئذ قال الأستاذ : « الآن إنظم الشعر » . ولقد روى عن  
شاعرنا أنه قال « ما قلت الشعر حتى رويت لستين امرأة من العرب منهن  
الخنساء وليلى ، فما ظنك بالرجال ! »

وهذا المنهج الذي أخذ به الأستاذ تلميذه ظاهرٌ فيه أنه إنما أراد إلى  
تخريج شاعر لا راوية . ومن ثمة كان دفعه إياه إلى التكثر من المحفوظ ثم إلى  
تعمد نسيانه ، تحقيقاً للغاية من تطبيع الفتى على قوالب النظم الجيد من غير  
قتل الملكة الشاعر المطبوع فيه .

ولقد جاءت أشعاره وهو في كنف أستاذه شاهد صدقٍ على مبلغ ما كان  
من تأثره بالأساليب القديمة وشعر الأعراب

ومن هذا القبيل رثاؤه لأسعد بن عصمة المشهور بأبي البداء الرياحي  
وهو أعرابي نزل البصرة يعلم فيها الصبيان بأجرة وأقام بها عمره ، وكان من  
الفصحاء ينقل الرواة عنه وروى له « الحسن » شعراً . ومن شعره يتغزل :  
قال فيها البليغ ما قال ذو العنى ، وكلُّه بوصفها منطبقٌ  
وكذاك العدو لم يعد أن قال ل جميلاً - كما يقول الصديق  
وقد أتت مرثية « الحسن » فيه - كما هو المرتقب لذلك الحين منه

متوعرة ، عليها جفوة الأعراب وخشونة الجاهلية وعنجهية البادية ، كثيرة الغريب ، حوشية اللغة . ومطلعها :  
هل مخطئ حفته عفر بشاهقة رعى بأخياها شتاً وطباًقا  
إلى أن قال :

زار الحمامُ أبا البيداء مخترماً ولم يغادر له في الناس مطراًقا<sup>(١)</sup>  
ومن طريف ما ذكر أن الأستاذ الأحرر قال ذات يوم لتلميذه  
الحسن ، ولعلها طريقة استحدثها لتخريبه : « إرثني وأنا حتى حتى أسمع » .  
فلم يُبهل الحسن أن جاء بمرثية لم يملك السامعون لها إلا استجاداتها ،  
ولكنهم تعلوا وقالوا له إن كنت قاتلها فقل في نحوها . فاعتزل وعمل فيه  
أخرى . فلما أنشدها وقعت موقع سابقتها . فقال أستاذة : « أحسنت ، والله » .  
فقال الفتى مازحاً : « يا أبا محرز ! مُت ، ولك ، عندي خير منها » . فقال :  
« كأنك قصرت ؟ » . قال الفتى : « لا ، ولكن أين باعثُ الحزن ! » .  
ولما لم يكن سبيل إلى إرجاء الأستاذ حكاه حتى يرى ما يقال فيه بعد موته فقد  
صدع بحكمه يومئذ فقال : « يا بني ! إن شعرك فوق سنك . ولئن عشت ،  
لتكونن رئيساً في الشعر » .

وأما المرثيتان ، فكلاهما من ذلك الطراز القديم . وإحداها رجز ومطلعها  
لو كان حتى واثلاً من التلّف لو ألت شعواء في أعلى شعف  
والأخرى على النسق نفسه وعلى القافية ذاتها إلا أنها ليست رجزاً وهي

مثبتة في ديوانه كأختها ، إلا أنه في هذه وتلك أبيات لا بد من إيرادها وهي قوله في الأولى :

أودى جماع العلم إذ أودى خلفٌ      مَنْ لا يُعَدُّ العلمُ إلا ما عَرَفُ  
قلبيدُمُ من العياليم الخُلفُ      فكلمنا نشاء منه نَعْتَرَفُ  
روايةً لانبجتنى من الصحف

ومثله في القصيدة الثانية :

لما رأيتُ المنونَ آخذةً      كلَّ شديدٍ وكلَّ ذى ضَعْفِ  
بِتُ أعزى الفؤاد عن خلفٍ      وبات دمعى إلا يفيضُ يكفِ  
أنسى الرزايا ميتٌ فُجعتُ به      أمسى رهينَ الترابِ فى جَدَفِ  
كان يُسنىُّ برقيقهِ غَلِقاً      فى غير عىٍّ منه ولا عنفِ  
يجوب عنك التى عَشيتَ بها      من قَبْلُ حتى يَشْفِيكَ فى لطفِ  
ولا يعمى معنى الكلام ، ولا .      يكون إنشاده من الصحفِ  
وكان ممن مضى لنا خلفاً      فليس منه إذ بان من خلفِ

وهذه الأبيات من المبرثتين أوردناها لأنها فوق بلاغتها بليغة الدلالة على مكان خلف من شاعرنا الناشئ . ولقد كان التاميز يكثر من ذكر أستاذه ويفاخر به . ولم يزل يقول فيه « جَمَعَ عِلْمَ النَّاسِ وَفَهِمَهُ » . وكان خلف - كما تقدم - له خِذْقٌ بالشعر وطبقةٌ فيه ، وقد اجتمع له ديوان شعر حمله عنه « الحسن » .

كذلك كان التلميذ أثيراً عند أستاذه ، حتى قيل على أكثر من لسان  
أنه كان من أميل الخلق إلى « الحسن » وأنه يودّه أكثر من غيره من  
الشعراء . ولما كان خلف ولداً في الأشاعرة وكان أحد عمال اليمن وكان  
عصبياً ، فقد استدعى « الحسن » يوماً وقال له : « أنت من اليمن ، فتكن  
باسم من أسماء الذّوين » . والذّوون هم المصدرة أسماءهم بـ « ذو » من ملوك  
اليمن . وأحصى « خلف » له أسماءهم وخيّرته ، فاختر منها « ذا نواس » .  
فكنّاه « أبا نواس » . فصارت له كنيةً وغلبت على « أبي علي » كنيته  
الأولى . فهو منذ ذلك الحين إلى يومنا يُعرف بين الناس عوامهم وخواصهم  
« بأبي نواس » .

وغنى عن البيان أن معرفة خلف بموضع أبي نواس في الأدب هي التي  
جعلته يدعو الفتى إلى إظهار نسبه إلى اليمنية ليؤثرها به وبما سيكون من  
شأنه ، تعصباً لها .

والأنساب ما برحت عند العرب موضع مفاخرة . وقد وقع من ذلك  
للشعراء مادة لهجاء من يريدون هجاءه ، بالتفنيد لدعواه وتهجين نسبه بالحق  
وبالباطل .

وكان أبو نواس من نسل الموالي ، فادّعى في أول دعوته أنه من ولد عبيد  
الله بن زياد من بني تيم اللات . ولكن شاعرنا لم يهنأ طويلاً بدعوته إذ قيل  
له إن الرجل الذي تدّعى إليه لا عقب له ، لأنه فلج ومات عن غير ولدٍ .

فاستحى الدعى ، وتحول عنهم على كره منه وكان يكبر شأنهم ويراقبهم .  
وأضى بعد ذلك صدرًا من عمره يخلط في دعوته . فتارة يدعى للنزارية  
وينتسب للفرزدق ، وتارة ينقلب على النزارية ويدعى لليمنية وأنه من قبيلة  
« حَكَم » . وكان كلما ادعى لواحدة هجا الأخرى وأقذع في هجائها حتى  
هاج عليه شعراء القبائل وتعرض لاستطالة أعدائه عليه وتعمزهم له تلميحاً  
ووقوعهم فيه تصريحاً . ومن ذلك هجاء الفضل الرقاشى له :

نبطى ، فإذا قيل له : « أنت مولى حَكَم ؟ » قال « أَجَلٌ »  
هو مولى الله - إذ كان به لاحقاً ، فالله أعلى وأجلُّ  
واضعاً نسبتَه حيث انتهى فإذا ما رابه ريبٌ رَحَلٌ  
ولقد ظلَّ الرقاشى وأبونواس يتهاجيان فما أمسك واحدٌ منهما عن  
صاحبه حتى فرَّق الموت بينهما .

وكذلك قول سليمان بن أبى سهل بن نوبخت :  
وَيُنْمَى إِلَى حَكَمٍ دَعْوَةً وَمَا إِنْ لَهُ نَسَبٌ فِي حَكَمٍ  
على أن المذكور فى أمر أبى نواس أنه كان بالفعل مولى الحكيمين .  
وهى قبيلةٌ كبيرةٌ باليمن منها الجراح بن عبد الله الحكيم أمير خراسان وقد  
كان جد أبى نواس من مواليه . ومن أجل هذا تكرر من الشاعر نخره باليمن  
ومدحه اليمنية ، وإذا كان قد عرض لها بالشتم مرة فذاك من حرِّ غيظه وغليان  
صدره على بعض اليمنيين وبخاصة هاشم بن حُدَيج الكندى ، وقد قال فيه :

وتَحْتَدُّ ، حتى يخاف الجليسُ أذاك عليه من الحدَّةِ  
وتختمُ ذاك بفخرٍ عليه بكندةً ، فاسلِّحْ على كندهِ  
ولم يلبث الشاعر أن اعتذر من ذلك أشد العذر ذاكراً أنه يعنيُّ وأنه لم  
يجاوز بشتمه اليمينية أن سبَّ نفسه وأهان والده :

فأقسمُ ما جاوزتُ بالشتمِ والذى وعرضي ، وما مزقتُ غيرَ أديمي  
ولا يخلو أن يكون أبو نواس في بعض دعاويه هذه يتماجن ويعبث على  
عادته ، ولا سيما أنه كان في أثناء هذا كله لا ينسى أنه فارسي من جهة أمه  
وإن لم يذكرها خشية أن يهجى بها . فكان يتعاجم في شعره كما سترى ،  
وقد ذهب في آخر أمره الى هجو العرب أجمعين ، واستنَّ في الشعر غير سنَّة  
شعرائهم الأقدمين .

## ملئقى الشّارات

لقد كان المسلمون فى صندز الإسلام مشغولين بالفتح . ولم تكن شواغلهم الفكرية إلى قبيل زوال الدولة الأموية تعدو المنازعات بين الأسر الطامحة ، والاختلاف فى الإمامة بين أمية وشيعة أهل البيت والخوارج ، ثم الاجتهاد فى المذاهب الفقهية ، ولم يظهر علم الكلام إلا فى أواخرها .

فلما استقرّ الأمر للعباسيين صرفوا همّهم عن الفتوح إلى توطيد دعائم الإمبراطورية العظيمة التى آلت إليهم ، فلم يُعرف لهم جهادٌ لنشر الدين وتوسيع حوزة الإسلام ، وإنما كانت خروبهم قمعاً لفتنةٍ فى الداخل أو دفعاً لنكث العهد ونقض الشرط والغدوان من الخارج . وفى ظلال هذه الحال من إيثار السلام ومداومة الاحتجاب والاستجمام ، تعدّدت المرافق وكثرت الأرزاق واستبحر العمران واتسعت الحضارة ، وأقبل معها الناس على الاستمتاع وطلب اللذة ، كما أقبلوا بعقولهم على تحرّى ألوان المعرفة والتطلّع إلى بعيدها واستطراف غريبها ، فيما نقله المترجمون بأمر الخليفة أبى جعفر المنصور من الكتب القديمة عن اليونانية والرومية والفهلوية والفارسية والسريانية فى المنطقيات والرياضيات والطب والنجوم

وكان من شأن نصرة الفرس للدعوة العباسية أن أحلهم خلفاء بني العباس المحل الرفيع وردوا عليهم اعتبارهم . لقد أُدِيل للفرس في يوم الزاب من يوم القادسية ، فهم اليوم كفاء والعرب لا سيّد ولا مسود ، عَفَى الانقلابُ العظيم على الفوارق ، فزالت من أمامهم العوائق وارتقوا إلى أسنى المناصب في الدولة ، واتخذ الخلفاء من الفرس كتاباً ووزراء ، ومن اليهود والنصارى تراجمه وأطباء ، وانفسحت لهم أجمعين مذاهب القول والعمل . ولا شك في أن السياسة الجديدة التي أخذت بها الدولة العباسية في المساواة بين رعاياها على اختلاف أجناسهم وأديانهم كانت مشجعاً على امتزاج الحضارات وتزواج الثقافات ، فأفاد العرب من ذلك خيراً كبيراً ، وكذلك دخل عليهم منه شرٌّ مستطير . فغلبت عليهم الحضارة الفارسية ، وتشاغلوا بالفلسفة اليونانية ، وقبسوا من نظَرِ أهل الهند ، وأدّاهم هذا كله إلى أشياء لم تكن من طبعهم ولا من مألوف عاداتهم في أول أمرهم ، من اصطناع الترف في الملبس والمأكل والاستهتار في الشرب ، والمجاهرة بما يستوجب الحد ، ومن الكلف الذي لا بعده كلفٌ بعلم النجوم والتنجيم ، والتفلسف حتى في الأمور الدينية والعقائد الإيمانية

والأمثلة على ذلك في شعر أبي نواس كثيرة لا سيما شعره بعد زيارته لبغداد. فمن تعاجمه في شعره وتعصبه للفرس قوله في صفةِ دنانِ الخمر ومجانى الكروم :

إذا قام فيها الخالبون أتهم      بنجلاء ثقب الجوف درتها الخمر  
مسارحها الغربي من نهر صرصر      فقطر بل فالصالحية فالعقر  
تراث أنوشروان كسرى ، ولم تكن      مواريث ما أبتت تميم ولا بكر

ثم قوله في صفة الغناء الذي يستجبه على الشراب المعتق :

فاسقنيها وغنّ صوتاً      لك الخير - أعجماً  
ليس في نعت دمنة لا      ولا زجر أشاماً

وقوله يتمنى لو كان الأكاسرة أحياء وكان نديمهم :

فلورد في كسرى بن ساسان روحه      إذن لاصطفاني دون كل نديم

ومثلها هذه الأبيات الرائعة في صفة دار من الدور الفارسية القديمة في ساباط ، وقد شرب فيها الشاعر وصحبه بين آثار من سبقوا من الندماء الغطارفة أبناء فارس ، ذا كراً لأيامهم ، ناظراً إلى الأطلال الناطقة بحضارتهم ، مجدداً بالشرب فيها عهدهم :

ودار ندامي عطلوها وأدلجوا      بها أثر منهم جديد ودارس  
مساحب من جر الزقاق على الثرى      وأضغاث ريحان جني ويابس  
حبست بها صبي ، فجددت عهدهم      وإني على أمثال تلك الحابس  
ولم أدر منهم غير ما شهدت به      - بشرقي ساباط - الديار البساس  
أقنابها يوماً ، ويومين بعده ،      ويوماً له يوم الترحل خامس  
تدار علينا الكأس في عسجدية      حبتها بأنواع التصاوير فارس  
قرارتها كسرى ، وفي جنباتها      مهى تدريها بالقسي الفوارس

فللخمر ما زُرَّت عليه جيوبُها      وللماء ما دارت عليه القلائس  
وكذلك احتفاله بيوم النيروز من الأعياد الفارسية :  
يُباكرنا «النوروز» في غلس الدجى      بنور على الأغصان كالأنجم الزهر  
يلوح كأعلام المطارف وشيئه      من الصُّفر، فوق البيض والخضر والجر  
إذا قابلته الشمس أوما برأسه      إلى الشرب أن سُروا ومال من السكر

إسقنا ، إنَّ يومنا «يوم رام»      ولي «رام» فضل على الأيام  
في رياض ربعية بكر النور      عليها بمستهل الغمام  
فتوشت بكل نور أنيق      من فرادى نباته وتوأم  
فترى الشرب كالأهله فيها      يتحسون خسروى المدام  
والنيروز أو النوروز عند الفرس أول يوم من السنة الشمسية عند نزول  
الشمس أول الحمل ، ومعناه بالفارسية «يوم جديد» لأنه يؤذن بمقدم الربيع  
الذى يرد على الدنيا شبابها وجدتها وهو عيدهم السنوى يقضونه في التنزه  
والشرب في الرياض . ويوم رام هو كل يوم حادى وعشرين من كل شهر  
من شهور الفرس ، يلذون فيه ويفرحون . وكان أبو نواس يحتفل بأعيادهم ،  
كما كان يلهج بذكر مناقبهم وتفضيلهم ويحب أن يتزيا بزيمهم ويظهر للناس  
أنه منهم .

ولاشك في أن الحركة الشعوبية كان لها كبير أثر في ذلك . فقد كان  
للعب افتخاراً بأنهم خير أم الأرض قاطبة ، ولما نشأوا عليه من الاستقلال

والعزة والمنعة في جزيرتهم ، وللصفات والعادات التي شاعت بينهم من إكرام الضيف ونجدة الضعيف وحفظ الأنساب ، وما كان عليه الأعراب من البديهة وسرعة الخاطر وقوة الجنان ، وما اقتصوا به لغتهم من صفة البلاغة وحسن البيان ، ثم ما كان من نشأة الإسلام فيهم وانتشاره على أيديهم . وقد ثقلت هذه العصبية المتطرفة من العرب وما يلحق بها من المفاخرة المتفجعة المتكررة . وزادها ثقلاً أنهم لم يرتضوا دعوة المفكرين المعتدلين إلى التسوية بين المسلمين عامة ، وأنه ليس لعربي على عجمي فضل إلا بالتقوى . فلم يلبث هذا التعنت أن ثارت عليه ثائرة غير العرب من شعوب الامبراطورية الإسلامية فغالوا مثل مغالاتهم في الخط من شأن العرب العرباء وتحقيرهم . فراحوا يهجنون أنسابهم بشيوع المرأة بين رجال عدة في جاهليتهم ، ويعدّدون مثالبهم من وأدم الولد خشية الإملاق ، واعتماد قبائلهم على الغزو والسلب ، ويزرون عليهم جذب الأرض وبدَاوة العيش ، وذهابهم في المن من أجل طعام أطمعوه أو معونة بذلوها . وراحوا في الوقت نفسه يذكرون عظمة السلطان عند الرومان ، وحكمة الهند وطبها ، ومنطق يونان وفلسفتها ، وعلوم مصر وسحرها ، وصناعات الصين وفنونها ، وحضارة فارس وترّفها . وجعلوا العرب من ذلك أقلّ الأمم شأنًا في كل شيء ، وأضعفها استحقاقًا للتفاخر .

ونحن نرى شاعرنا أبا نواس في شعره دائم التعريض بالأعراب ، والمقابلة

بين حياة البداوة العربية وبين الحضارة الفارسية في حاضرها وماضيها :

- ١- دَعِ الرَّسْمَ الَّذِي دَثَرَا      يقاسى الريحَ والمطراً
- ٢- أَلَمْ تَرَ مَا بَنَى كَسْرَى      وسابورٌ لمن غبها
- ٣- مَنَازَهُ بَيْنَ دَجَلَةَ وَالْ      فِرَاتِ تَفِيَّاتِ شَجَرَا
- ٤- بِأَرْضِ بَاعِدِ الرَّحْمَا      نُ عَنْهَا الطَّلْحَ وَالْعُشْرَا
- ٥- وَلَمْ يَجْعَلْ مَصَايِدَهَا      يَرَابِيعَا وَلَا وَحْرَا
- ٦- وَلَكِنْ حَوْرَ غَزَلَانٍ      تَرَاعَى بِالْمَلَا بَقْرَا
- ٧- وَإِنْ شَتْنَا حَثْنَا الطَّيِّ      رَ مِنْ حَافَتِهَا زُمْرَا
- ٨- وَإِنْ قَلْنَا اقْتُلُوا عَنْكُمْ      يَبَا كَرِ شَرِبَتْهَا الْخُمْرَا
- ٩- فَذَاكَ الْعَيْشُ لَا سِيدًا      بِقَفَرَتِهَا وَلَا وَبْرَا

وهذا وصف آخر لبلدة من البلدان المتحضرة التي لا تمت إلى بدو العرب بسبب ، وإنما هي من الحواضر الفارسية وطن « بنى الأحرار (١) » كما شئت العصبية للفرس أن يسموا أنفسهم :

ببلدة لم تصل كلبٌ بها طنباً      إلى خباءٍ ولا عبسٌ وذُبيانُ

ليست لذُهلٍ ولا شيبانها وطناً      لكنها لبني « الأحرار » أوطانُ

أرضٌ تُبني بها كسرى دساكره      فما بها من بني الرعاء إنسانُ

(١) ( إن الفرس كانوا من سعة الملك وعلو اليد على جميع الأمم وجلالة الخطر في أنفسهم حتى انهم كانوا يسمون أنفسهم « الأحرار » و « الأبناء » وكانو يعدون سائر الناس عبيداً لهم فلما امتحنوا بزوال الدولة عنهم علو أيدي العرب - وكانت العرب أقل الأمم عند الفرس خطراً - تعاضهم الأمر وتضاعفت لديهم المصيبة ، وراموا كيد الاسلام بالحاربة في أوقات شتى ) كتاب الفصل لابن حزم ج ٢ ص ٩١ .

وما بها من هشيم العرب عرّفةً ولا بها من غذاء العرب حطبان  
لكن بها جُلنارٌ قد تفرّعه آسٌ ، وكلّله وردٌ وسوسان  
فإن تنسّمتَ من أرواحها نسماً - يوماً - تنسّم في الخيشوم بريّحان  
وكان مما يبغضه في العرب أنهم لا يفتنون يتفاخرون ، إلا يكن من  
العصبية القومية بينهم وبين غيرهم من الشعوب ، فينهم وبين أنفسهم . فهم  
أبدًا في شقاق ونقارٍ من العصبية القبليّة ، لا يجتمع رجالان من قبيلتين حتى  
يقوم بينهما الفخار وينتهي بهم آخر الأمر إلى التعدي والشجار . ويقول  
أبونواس إنه من أجل هذا يؤثر صعبة الأعجام ومنادمتهم :

نادمتهم أرتاضُ في آدابهم فالفرس عدوى سكرهم محسومُ  
متوقّرين ، كلامهم ما بينهم ومزمنين خفاؤهم مفهوم  
ولفارس الأحرارِ أنفُسُ أنفُسٍ ونفّارهم في عشرة معدوم  
وإذا أتادم عصبه عريبة بدرت إلى ذكر الفخار تميمُ  
وعدّت إلى قيسٍ وعدت قوسها ، سُبَيْتُ تَمِيمٌ وَجَمَعَهُمْ مَهْرُومُ !  
وبنو الأعاجم لا أحاذر منهم شرًّا ، فمنطق شرّهم مزوم  
لا يبذخون على النديم إذا انتشوا ولهم إذا العربُ اعتدت تسليمُ  
وجميعهم لي - حين أقعد بينهم - بتدليلٍ وتهيبٍ موسومُ

هذا قليل من كثير من مظاهر نزعة شاعرنا الفارسية ، وستطالعنا ثانية  
عند وصفنا لحياته في دار السلام ، فحسبنا هذا القدر منها هنا .

وأما إشارات الدالة على اشتغال أهل العصر بعلم النجوم، فغير قليلة .  
ولا غرو فقد كان الخليفة العباسي الثاني أبو جعفر المنصور أول خليفة قرَّب  
المنجمين وعمل بأحكام النجوم ، وكان معه من المقدمين في هذا العلم نوبخت  
الجوسى المنجم الذى أسلم على يديه ، وهو أبو النوبختية الذين اتصل بهم  
« أبو نواس » أوثق اتصال . وقد تُرجمت الكتب في الفلك وهيئاته  
وأُخرجت إلى الناس فنظروا فيها وتعلقوا إلى علمها .

وقصيدة شاعرنا في مدح الوزير الشيخ يحيى بن خالد البرمكى مثال إذا  
سقناه وحده فإنه يُغنى عن كل مثال بعده . قال يصف ممدوحه بالسخاء  
والشجاعة :

صورة المشتري لدى بيت ثور الـ	ميل والشمس أنت عند انصبابِ
ليس (زاوئش) حين سار أمام الحـ	وت والبدر إذ هوى لانصباب
منك أسخى بما تشخُّ به الأـ	قس عند انتفاص درّ الحلاب
لا وبهرام تستقلّ به العقـ	رب بالليل زائداً فى الحساب
منك أمضى لدى الحروب ولا أهـ	ول فى العين عند ضرب الرقاب

ويلاحظ أن (زاوئش) Zeus لفظ يونانى وهو المشتري فى الكواكب  
السيارة ، ثم فى خرافات اليونان الأقدمين كبير الآلهة ورب السموات .  
وأما (بهرام) فهو المريح بالفارسية ثم فى الخرافة اليونانية إله الحرب .  
ومثل ذلك قوله يصف الحر بالقدم :

تُخَيَّرَتْ ، والنجوم وقفت . لم يتمكن منها المدارُ  
وكان أصحاب الفلك يقولون إنه كان لدوران الفلك ابتداءً كان قبله ساكناً .  
وفي كلام أبي نواس أيضاً إمامٌ بمبادئ الطبيعيات التي كانت بسبيل  
الشيوع في أيامه . فمن ذلك تصرفه في الكلام عن الطبائع الأربع التي هي  
الحرارة والبرودة والرطوبة واليبوسة في قوله هازلاً يستفتي (أبا عيسى جبريل)  
في الحمر :

سألتُ أخى « أبا عيسى » و « جبريلُ » له عقل  
فقلت « الحمر تعجبني » فقال « كثيرها قتل »  
فقلتُ له « فقدّر لي » فقال وقوله فصل :  
« وجدتُ طبائعَ الإنسا ن أربعةً هي الأصل  
فأربعةٌ لأربعةٍ لكل طبيعة رطل »

وقوله هاجباً زهير المغنى :

تَلَّ لزهيرٍ إذا اتكا وشدا « أَقْلِلْ أَوْ أَكْثِرْ ، فأنت مهذارُ  
سَخُنْتَ من شدة البرودة ح تى صرتَ عندي كأنك النار  
لا يعجب السامعون من صفتي كذلك الثلج باردٌ حار »

ففي ذلك التفاتٌ إلى ما كان يروى من أقوال أهل الهند أن الشيء إذا  
زاد في البرد تحوّل إلى الحرارة بدليل أن الصندل الأبيض إذا أفرط في حركته  
عاد حاراً مؤذياً .

وأخيراً يقع القارىء في شعره هنا وهناك على ألفاظ من مصطلح المتفلسفة مثل قوله يصف ما صيره إليه تبريح العشق من النحول والضحى .

تَرَكْتُ مِنِّي قَلِيلاً مِنْ الْقَلِيلِ أَقَلًّا  
يَكَادُ لَا يَتَجَزَّأُ أَقَلٌّ فِي اللَّفْظِ مِنْ «لَا»

وقد زعموا أن إبراهيم النظام المعتزلي لما أن سمع ذلك منه قال له : « أنت أشعر الناس في هذا المعنى . والجزء الذي لا يتجزأ ، منذ دهرنا الأول نخوض فيه ، ما خرج فيه لنا من القول ما جمعته أنت في بيت واحد » .

ولقد كثرت في الحواضر الإسلامية الشكاك والدهريون ، وسرّوجو التعاليم اليهودية والنصرانية ، والزنادقة من الثنوية وغيرها من مذاهب الفرس ولاسيما المانوية ، فكانوا يتصلون بالناشئة يزنبون لهم المروق والاحاد ويفسدونهم . ولولا ظهور المتكلمين وقوة المعتزلة وقتئذٍ لكان بلاء الإسلام بهؤلاء أشدّ وأنكى . ومن هؤلاء الدعاة إلى الزندقة في البصرة عبد الكريم بن أبي العوجاء . وقد تصدّى له شيخ المعتزلة عمرو بن عبيد فقال له مهدداً متوعداً : « قد بلغني أنك تخلو بالحدّث من أحداثنا فتفسده وتستنزلهُ وتُدخله في دينك . فإن خرجت من مصرنا ( يعني البصرة ) وإلا قتُ فيك مقاماً آتى فيه على نفسك » . وكذلك تعاون وإمام المعتزلة واصل بن عطاء على الهتف بالشاعر الأعمى الملحد بشار بن برد حتى نفى من البصرة . فلما رجع إليها عند موت واصل سنة ١٣١ لم يزل عمرو به حتى نفى ثانية ، وظل بعيداً عنها إلى

أن مات المعتزليّ في أواخر سنة ١٤٣ . ولقد كان من شيوع الزندقة ونشاط دعايتها أن وقف عمرو بن عبيد حياته كلّها على حربها وكثرة المقال لنهاضتها ، ومن مصنفاته كتاب فيه ألف مسألة للرد على المانوية . كما أنه صمد من معتزلة الجيل لجدال الزنادقة ومناظرتهم أبو الهذيل محمد ، ولقّب بالعلّاف لأن داره بالبصرة كانت في العلافين . وكان للعلّاف بصراً بالفلسفة اليونانية وكان في احتجاجاته العقلية لا يخلو من بعض الاعتماد عليها . ولعل في الأبيات التي هجا بها أبو نواس خصمه شاعر البرامكة أبان بن عبد الحميد اللاحق صورة لما كان شائعاً في أوهام الناس عن عقائد المانوية في ذلك العصر :

جالستُ يوماً « أباناً » لادرّ درّ « أبانِ »  
ونحن حَضَرَ رواقِ الأَمير بالنهرِ وان  
حتى إذا ما صلاة<sup>(١)</sup> الأُولى دنت لأذان  
فقام ثمَّ به ذو فصاحة وبيان  
وكلمًا قال قلنا<sup>(٢)</sup> إلى انقضاء الأذان  
فقال<sup>(٣)</sup> : « كيف شهدتم بدا ، يغير عيان ؟  
لا أشهدُ - الدهر - حتى تُعَين العيان »  
فقلتُ : « سُبْحانَ ربِّي ! » فقال : « سُبْحانَ ماني ! »

(١) صلاة الأولى يعني بها صلاة الصبح (٢) كلما قال المؤذن قولاً رددناه بعده  
(٣) أي فقال أبان اللاحق كيف شهدتم بقول المؤذن « أشهد ألا إله إلا الله ، » « أشهد  
أن محمداً رسول الله » ولستم للأمر بشهود عيان

فقلتُ : « عيسى رسولٌ » فقال : « من شيطان »  
 فقلتُ : « موسى نبيُّ الله » مهيمِنُ النّانِ  
 فقال : « ربك ذو مَقَّةٍ لَمَّةٍ إِذَا ولسان ؟  
 أَنفُسُهُ . خَلَقَتْهُ أَم مَنْ ؟ » فَمَتُّ مَكَانِي  
 عن كافرٍ يَتمرِّي<sup>(١)</sup> بالكفر بالرحمن  
 يريد أن يتسوّى بالعصبة ، المَجَّانِ  
 بعَجْرِدٍ وَعِبَادٍ والوالي<sup>(٢)</sup> المَجَّانِ  
 وقاسمٍ ومُطِيعٍ رِيحَانَةٍ النَّدْمَانِ

وكانت خراسان كعهدا منبت الكثير من الدعوات ومرتعاً لدعاتها . وقد ظهر فيها في أوائل عهد الخليفة المهدي دعيٌّ من أهل مرو يسمى حكيمًا ، وكان أعور قصيراً مشنوء الخلق ، وكان لا يسفر عن وجهه بل اتخذ وجهاً من ذهبٍ فتقنع به لئلا يُرَى ، فلقب بالمتنع . وكان يدعى الألوهية فيزعم أن الله خلق آدم وتحوّل في صورته ولذا قال للملائكة اسجدوا لآدم فسجدوا إلا إبليس أبى واستكبر فكان من الكافرين ، ثم تحوّل في صورة نوح وهلم جراً إلى أن حلّ في أبي مسلم الخراساني ومن بعده حلّ فيه . وهو يقول بالتناسخ ، وكانت تعاليمه إباحية فتابعه ضلال الناس ، واجتمع إليه خلقٌ

(١) يتمرى بالكفر يترى به أى يتخذ زينة

(٢) الوالي هو والبة بن الحباب أستاذ أبي نواس والآخرون حماد عجرد وعبادة وقاسم

بن زنقة ومطيع بن لياس

كثير غنّب على عقولهم بالتمويهات . ولم تتمكن جيوش الخليفة منه إلا بعد عامين كاملين . وقد أطالوا حصاره وضايقوه واستألوا معظم أصحابه ، فلما أيقن بالهلاك جمع نساءه وأهله ، فشرب وإياهم السمّ ، وألقى بنفسه في النار وهو يقول « من أحبّ أن يرتفع معي إلى السماء فليلقِ نفسه معي في هذه النار » . وكان ذلك مما زاد في افتنان من بقي من أصحابه . وبلغ من شيوع الزنادقة في خراسان وفارس والعراق في أواخر أيام المهدي أن ضاق صدر الخليفة وفارقه صبره واضطرم غيظه ، فجدّ في طلب الزنادقة وولّى أمرهم « عمر الكلبواذي » ليفرغ لهم ويمعن في البحث عنهم في الآفاق لينكل بهم شرّ تنكيل ، ولما مات ولّى مكانه « محمد بن عيسى المعروف بممدويه » .

ويخلص من هذا جميعه أن حركة الزنادقة كانت من الشدة بحيث دعت الى مقاومتها بقوة السيف وبقوة الحجّة . وكان المهدي صاحب هذه الخطة المزدوجة . وفي ذلك يقول المؤرخ المسعودي : « إن المهدي أمعن في قتل الملحدين والمداهنين عن الدين لظهورهم وإعلانهم باعتقاداتهم في خلافته ، لما انتشر من كتب ماني وابن ديسان ومريقيون ، مما نقله عبد الله بن المقفع وغيره وترجمه من الفارسية والفهلوية الى العربية ، وما صنّف في ذلك ابن أبي العوجاء وحماد مجرّد ويحيى بن زياد ومطيع بن إياس من تأييد المذاهب المانوية والديصانية والمرقونية . فكثرت بذلك الزنادقة وظهرت آرائهم في الناس . وكان المهدي أول من أمر الجدليين من أهل البحث من المتكلمين بتصنيف

الكتب على الملحدین ممن ذكرنا من الجاحدين وغيرهم، وأقاموا البراهين على المعاندين وأزالوا شبه الملحدین فأوضحوا الحق للشاكين .

وكان أبو نواس ممن اشتهاوا الكلام وجالسوا المتكلمين . ولكنه لم يفد من ذلك ما أفاده غيره ، فان هذا العلم إن يكن بإضافته شواهد المعقول الى شواهد المنقول قد زاد البعض إيماناً على إيمان ، فإن تعرض مثل شاعرنا لهذه الموضوعات مع ما كان عليه من خفة الشباب وقلة التورع وفساد النشأة قد أداه الى شيء من الزندقة . ولقد أقر على نفسه بها في هجائه لابراهيم النظام المعتزلى :

قولا لابراهيم قولاً هتراً غلبتني زندقةً وكُفراً

ولقد استمر الجدل بين القاتنين باختيار الإنسان لأفعاله، وحرية إرادته لها وقدرته عليها ، وهم المعروفون بالتقديرية ، وبين الذين لا يُثبتون للإنسان فعلاً ولا قدرة على الفعل ، ويضيفون ذلك كله الى الله تعالى ، وهم المعروفون بالجبرية . وهو جدال ذو خطر كبير لا اتصاله بالعدل الإلهي من حيث التكليف ثم الحساب . ولقد أعت أبو نواس متابعتهم ، فلم يلبث أن وقف من البحث عند حد التجربة المادية والمشاهدة الحسية في قوله :

يا ناظراً في الدين ما الأمر ؟ لا قدرٌ صحَّ ولا جبرٌ

ما صحَّ عندي من جميع الذي يُذكر إلا الموتُ والقبرُ

وحسبُ القارىء في زندقته شهادةُ فيلسوف الشعراء أبي العلاء المعرى

إذ يقول في رسالة الغفران : « ولا أرتاب في أن دعبلاً كان على رأى

الحكّميّ (أبي نواس) وطبقته ، والزندقةُ فيهم فاشيةٌ ومن ديارهم ناشئةٌ «  
وفي موضع آخر منها « وقد اختلف في أن أبا نواس ادّعى له التألّه ، وأنه كان  
يقضى صلوات نهاره في ليله ، والصحيح أنه كان على مذهب غيره من أهل زمانه »  
على أن أبا العلاء على عادته في التشكك وعدم الجزم يقول في نفس الرسالة  
« وذكر صاحبُ كتاب الورقة جماعةً من الشعراء في طبقة أبي نواس ومن  
قبله ووصفهم بالزندقة . وسرائرُ الناس مغيبةٌ وإنما يعلم بها علام الغيوب »  
وأيّاً كان الرأي ، فإن الواقع أن شاعرنا لم يكرر القول في هذه الموضوعات  
ولم يجعل الكلام فيها من أغراض شعره كأبي العلاء ، بل تحرز ما استطاع  
من أن يذهل فيها عن نفسه عملاً بوصيته لغيره :

مُتٌ بداء الصّمت خي رٌ لك من داء الكلام

إنما السالمٌ من ال جيم فاهُ بلجام

على أنه مع ذلك كان لا يملك لسانه من الخروج عن حد الأدب والمساس  
بجرمة الدين وهو في حالة سكر أو في سياق مجنون .

ومن ذلك ما يروونه من مداعباته للشيخ عبد الواحد بن زياد أستاذ  
الحديث بالبصرة ، إذ أقبل ذات يوم الى مجلسه وقد كثر عليه أصحابُ الأحاديث  
ليسألوه عنها . فقال لهم : « ليسأل كلُّ رجلٍ منكم عن ثلاثة أحاديث مهمة  
وليمض » . ففعل الناسُ ذلك ، حتى انتهى الى أبي نواس ، فقال : « سلّ يا فتى »  
فقعده بين يديه وأنشأ يقول :

ولقد كنا رويننا  
عن زرارة بن أوفى  
قال : « مَنْ مات محبًّا  
أُتِيَ ذاك صوابًا  
عن سعيدٍ عن قتادة  
أنَّ سعد بن عبادة  
فله أجرُ الشهادة »  
نَتَّبِعُ مِنْهُ سَدَادَهُ ؟  
فالتفت إليه الشيخ مغضبًا وقال : « اغرب عني يا خبيث ، والله لا أخذتُك  
بعد ذلك ، ولا أعرف وجهك » . فقال أبو نواس كالمحتج : « والله لا أتيت  
مجلسك وأنت تردّ الصحيح من الأحاديث »  
وعلى هذا النسق أخبر أبو نواس كلها حين يُفِرط المجونُ عليه . وكذلك  
أشعاره حين تنازعه نفسه الآثمة إلى الحمر ، وتدفعه شهوته الفاسدة إلى الاستهتا  
بالذات :

ألم ترّني أبحتُ اللهوَ نفسي  
كأنّي لا أعود إلى معادٍ  
وإديني ، واعتكفت على المعاصي  
ولا أخشى هنالك من قصاصٍ  
وكذلك قوله مجادلًا :

وملحة باللوم تحسب أني  
بكرتُ على تلومني فأجبتها  
فدعى الملام فقد أطعتُ غوايتي  
ورأيتُ إتياني اللذازة والهوى  
أحرى وأحزم من تنظر آجلٍ  
ما جاءنا أحدٌ يخبر أنه  
بالجهل أوتر حبة الشطار  
« إني لأعرف مذهب الأبرار  
وصرفتُ معرفتي إلى الإنكار  
وتعجّلي من طيب هذى الدار  
علمي به رجمٌ من الأخبار  
في جنّةٍ مَنْ مات أوفى نار »

ولقد كان الجُمَاز عند شاعرنا فأسمعه هذه الأبيات ، فلما بلغ الى البيت الأخير ، قال له الجُمَاز : « يا هذا ، إن لك أعداء ، وهم ينتظرون مثل هذه السقطات ، فاتق الله في نفسك ، ودع الإفراط في المجون ، واكتبها » . فقال أبو نواس : « لا والله ، لا أكتبها خوفاً . وإن قُضى شيء كان » . فسمى الخبر الى الوزير الفضل بن الربيع ثم الى الخليفة الرشيد ، فما كان بعد هذا إلا أسبوع حتى حُبس .

بيد أن أبا نواس مع ما كان يلقاه كل حين من التعزير والحبس والتخويف ما برح طوال حياته ينشد من أمثال ذلك الكثير متى نال منه السكر وغلبه الطرب وطفح على قلبه ، مثل قوله :

استقنيها ملاً وفياً لا أريد المنصفاً  
وضع الزق جانباً ومع الزق مصحفاً  
واحس من ذا ثلاثة واتل من ذاك أحرفاً  
خير هذا ، بشرّ ذا ، فإذا الله قد عفا

وهذا كله لا يجب أن نأخذه على الشاعر مأخذ الجد ، فلقد عاش الرجل ومات صاحب لهو . وقد ألقى أبو نواس في سجن الزنادقة للمرة الأولى وهو شاب لم يبلغ العشرين من عمره ، فلقى فيه حماد عجرد فقال في وصفه : « كنت أتوهم أن حماد عجرد إنما يُرمى بالزندقة لمجونه في شعره ، فإذا حماد عجرد إمام من أئمتهم ، وإذا له شعر مزاج بيتين بيتين يقرمون به في

صلاتهم» . ولا شك عندنا في أن القارى لهذا الحديث يستشعر منه استنكار  
الفتى ونفوره حين ظهر له أن زندقة حماد مجرد حقيقة لا هو . وأكبر الظن  
أن أبا نواس لم يكن يتزندق عن عقيدة ، وإنما كان يظهر الزندقة تظرفاً .  
وليس هو في ذلك نسيج وحده بل مثال من أمثلة كثيرة العدد على روح  
العصر . وليس أدل على ذلك من قول معاصره الشاعر ابن مناذر في محمد  
ابن زياد :

يا بن زياد ، يا أبا جعفر !      أظهرت ديناً غير ما تُخفي  
مُزَنِّدَقُ الظاهرِ باللفظِ في      باطنِ إسلامِ فتى عَفٍّ  
لست بزنديقٍ ، ولكنما      أردت أن تُوسمَ بالظرفِ

## الحب الأول والأخير

كل جنس مدفوع إلى الجنس الآخر بدافع من تلك الحاجة الطبيعية  
الأمرة التي أودعها خالق النسم كل نسمة لبقاء الحياة وحفظ النوع . وإذا  
كان أمر من الأمور في غنية عن البيان ، فذاك ما للعاطفة الجنسية على  
الأحياء من سلطان . ولا بدع فهي صاحبة الشأن الأول في نظام الوجود ،  
وقد اقترنت منذ القدم بدوافع الإنسان الأولية، ثم لا بست أولى شعائره  
الدينية .

فهذه الغريزة عميقة أيما عمق ، وعامة كل العموم ، وهي تشغل حيزا  
كبيرا من اهتمام الإنسان وإن يكن الكلام فيها قليلا والكتابة عنها أقل  
وهي بعد مركبة القوى شتى العناصر ، يشترك فيها كياننا الحسى والعاطفى  
والروحى . وهذه العوامل متجاوبة فينا متواشجة ، تتحول فيما بينها مؤثرة  
متأثرة ، وقد يغلب أحدها فلا تدوم له الغلبة ، كما أن المغلوب لا يبرح على كل  
حال حتى الجذوة كامن القوة

والصبي إذا أدرك سن المراهقة ، وشبت فيه العاطفة الجنسية وعذبته ، قد

يتلفت كالحيوان المفترس يطلب فريسةً يُشبع بها هذا السعار الجنسي ويرفه من ضغطه الموبق . ولكن الحاجة الجسدية لا تلبث جسديةً على حالها ، فإن كثافتها لتلطف ، وإن حواشيتها لتتلون بألوان الطيف ، وتتسربل أعطافها بأبراد الخيال ووَشَى الشعر . وذلك إلى أن المرء له إلى كيانه العميق السفلى كيانٌ رفيعٌ علوى ، يقتضى التعاطفَ بين قلب وقلب ، والتوافق بين مزاجٍ ومزاج . وهذا التجاذب الخفى بين الأرواح مما يهون على العشاق تباريح المهوى ولوعة الحرمان ، ويجعل أنفسهم أطيب ما تكون بالبذل والمفاداة وإنكار الذات

على أنه لن تفتأ بين هذا الأفق السامى وذلك القرار الأرضى صلة غير مقطوعة ، كالزهرة أصولها مطمورةٌ فى حضيض التربة ، وكالتربة يتحلل من عناصرها الغليظة ما تزكو به الزهرة

فالشهوة هى حاجة الحس ، ويعرف صاحبها الشبع فى كل مرة كما يعرف الجائع الامتلاء بعد كل وجبة . فإذا ما ترقى بها الإنسان إلى الحب كان شوقه دائماً ، فليس هو بالذى تشبع نهمته وتُنقع غلته ، بل لعله مع القرب أبقى شوقاً وأشدَّ هياماً على حد قول ابن الرومى :

أعانقها - والنفس بعدُ مشوقةٌ  
إيها - وهل بعد العناق تدانِ !  
وأثم فاها ، كى تزول حرارتى  
فيشدد ما ألقى من الهيام  
وما كان مقدار الذى بى من الجوى  
ليشفيه ما ترشف الشفتان

كأن فؤادى ليس يشفى غليله سوى أن يرى الروحين تمتازجان  
وهذه الصورة أصح مثال على الحب فى حده الطبيعى السليم . فليس فيه  
إنكار الزهّاد للجسد وانصرافهم عن ظاهر الحس ، وفيه مع هذا شوق  
المتصوفة إلى ما وراء الحسّ وحنينهم إلى الاتحاد بالروح والفناء فى المحبوب .  
وما كان شاعرنا أبو نواس على استهتاره كسائر الخلعاء المجّان فى اللهو  
والشراب ومصادقة الفتيان ، بالذى يخرج وقد بلغ مبالغ الرجال عما للحب  
الطبيعى بين الجنسين من غلبة على الحسّ وسلطان على النفس .  
فاتفق له أن كان فى المر بد جالساً مع شباب من آل ثقيف يتزهون وهو  
ينشدّهم من أشعاره ، إذ مرت بهم جاريةٌ أفرغت فى قالب الجمال ، سوية  
الخلقة بديعة التقطيع ، ميساء معتدلة القوام .  
فوق القصيرة ، والطويلة فوقها . دون السمين ، ودونها المهزولُ  
وقد أبرزت عن وجهٍ وضّاح ، أزهر اللون ، رفاف البشرة ، حلو الملامح ،  
عبقرى المعنى . فجعل ينظر مأخوذاً إلى ذلك المنظر الرائع والحسن البارِع  
وهى ماضية فى طريقها لا تلتفت ، قاصرة الطّرف ، مسبلة الأهداب .  
وما زال يُتبعها نظرَه إلى أن غابت عنه . فقال له أصحابه : « خرجتَ عن  
حدِّك الذى كنت تنسب إليه يا أبا نواس » يشيرون إلى ما عرف عنه من  
الغزل بالمدكر . فسكت لحظةً لا يجيب ، ثم أنشأ يقول :

إنى صرفتُ الهوى إلى قمرٍ لا يتحدّى العيونَ بالنظرِ

إذا تأملتَه تعاظمتكَ الـ إقرارُ في أنه من البشر  
ثم يعود الإنكارُ معرفةً منك إذا قستَه إلى الصُورِ  
مباحةٌ ساحةُ القلوب له يأخذ منها أطيبَ الثمرِ  
وَبقي بينهم ساهماً سحابةً نهاره ، حتى إذا أظلمَ المساءُ استعجلَ العودةَ  
إلى بيته ليخلو إلى نفسه . لقد انطبعت هذه الصورةُ العابرةُ في قلبه بخطوط  
من نورٍ ونارٍ ، ولن تفارقه في ليلٍ ولا في نهارٍ . وهيهات بعد اليوم أن يطيب  
له نومٌ أو يقرَّ له بال . إن أبا نواس اليوم غير أبي نواس الأمس . هذا الرجل  
الواقعي المستغرق في الحسِّ ، والملاجن المستهلك في اللهو والسكر ، والخلى الذي  
لم يعرف الحبَّ ، قد شُغف اليوم حبًّا ، وأصبح بخيال هذه المرأة مستهماً  
صبًّا . فليس شيءٌ من مفاتن الحياة يشغله عن التفكير فيها ، وهو ينظم  
الأشعار تلو الأشعار ليناجيها ، يشكو وجدَّه بها وحنينَه إليها وهو لا يعرفها .  
ولقد طال سؤالُ أبي نواس عنها وتنسَّمُه لأخبارها وجليَّة أمرها ، فلم يقع بعد  
اليوم الذي رآها فيه على خبرٍ منها . فما أحالَهُ ذلك عن قصده ولا حبس من  
عنانهِ وصرفه عن هواه . وكان يقول لمن يلحاه في كَجح حبه ودأبه في طلبه :  
كما لا ينقضى الأربُ كذا لا يفترُّ الطلبُ

وتناقل أهلُ البصرةَ حال شاعرنا في حبها وأقواله فيها وأكثرها ذكره  
في كل محفلٍ ومجمع .

ولم تكن هذه العشوة المجهولة إلا « جناناً » جارية آل عبد الوهاب

الثقفي ، وقد اتفقت الأقوال على أنها كانت مقدودةً حلوةً بديعةً الحسن ،  
أديبةً ظريفةً عاقلةً ، تعرف الأخبار وتروى الأشعار . كما اتفقت الأقوال  
على أن أبا نواس لم يصدق في حب امرأةٍ غيرها .

ولقد ذكرته لها نساء من صواحبها ، وزين لها أن يخرجن فيعبثن به .  
ويمازحنه . فخرجن يوماً وأبو نواس على غفلة من ذلك حتى وافينه . فلما  
رأها كاد عقله يذهب ، وتحيّر ، وأقبل وأدبر ، فدنت منهن واحدةً إليه .  
فقال — « يا فتى ، أنت أبو نواس ؟ » .

فقال لها متلهفًا — « نعم ، أنا المعنى بمن لا تثنى لشكايتي » .

فقال كالمتهكمة — « بالله أنت عاشق ؟ » .

فلم يمهلهما وبادر مؤكداً — « إني والله ! » .

فتضاحكت — « لمن ؟ » .

فأطرق مردداً — « لمن لا يعلم ما بي ، ولا أعلم من هو »

فقال في خبثٍ — « فاجعلني رسولاً إليه ، فلعن الله أن يمن عليّ »

وعليك » . فأقبل عليها يقول : « هي والله التي معك » وأوماً إلى جنان .

فانصرفت عنه إلى جنان وهي تضحك . فأعلمتها بما دار بينها وبينه .

فأنكرت ذلك عليها وقالت : « مثل هذا الكلب تظمعيه في » وتولت .

مغضبة .

واتبعها أبو نواس من بعيد حتى عرف منزلها ومولاها ، وسأل عن اسمها

فأخبروه عنها . وعاد الشاعر راضياً عن يومه ، قانعاً بما وصل إلى علمه ، وهو  
يترنم « تبدت لنا كالبدر وسط الكواكب » . ولقد وصف فيما بعد هذه  
الواقعة ، وصوّر لنا إقبال هؤلاء الجوارى من ناحية رصافة البصرة في أم  
زينة ، يحفّن بجنان كالتماثيل الحسان ، وما كان من انصرافها مغضبة :

ومضمخات بالعنب يرزلن من غُرف الجنان  
راضعتهن من الصبا كأساً عقدن بها لساني  
أقبلن من باب الرصافة كالتماثيل الحسان  
يحفّن أحور كالغزال أمر إمرار العنان  
يمشى بردف كالنقا يختال تحت قضيب بان  
فاذا انجلت فجاملي كيلا أموت على المكان

واحتال الشاعر على التعرف بآل عبد الوهاب الثقفي ، فعاشرهم ونادهم  
توصلاً لجنان . ولعل ذلك عن طريق صداقته لابن مناذر الشاعر الذي كانت  
المودة بينه وبين عبد المجيد بن عبد الوهاب الثقفي مضرب المثل ، وكان أحدهما  
لا يطيب بفراق صاحبه ، حتى قيل في ذلك أنهما كانا يسمران أحياناً إلى  
الصبح ، فاذا انصرف عبد المجيد شيّعه ابن مناذر إلى منزله ، فاذا بلغه  
وانصرف ابن مناذر شيّعه عبد المجيد .

ولقد تكلف أبو نواس ما تكلف من كتمان هواه بجنان ، ثم طفح با  
الوجد وغلب عليه الهيمان ، فضاقت صدره ، وصار كالمغلوب على أمره يُوّود  
أن يمسك على ما في نفسه :

لأبيحن حرمة الكتمان راحة المستهام في الاعلان  
قد تصبرت بالسكوت وبالإبط راق جهدى فنمت العينان  
تركتنى الوشاة نصب المشيرين وأحدوثه بكل مكان  
ما أرى خالين للسرى إلا قلت ما يخلوان إلا لشافى  
ثم أنشأ يشبب باسمها ويظهره حتى عرف بها واشتهر بحبها . ومن إشاراته  
إلى اسم « جنان » وصفتها قوله :

لما تكشفت عنى أنتى كلف كشفت أيضا لهم عن به السكلف  
جيم وجدت لها نونين ، بينهما - لمن تهجى اسمها أو خطه - ألف  
يضمه من ثقيف بعض دورهم ما بينكم بعد ذا التبيان مختلف  
واتفق أن تزوجت عمارة بنت عبد الوهاب الثقفي برجل من ثقيف يدعى  
محمد بن خالد<sup>(١)</sup> فصارت إليها جنان وصيفة لها . وكانت مولاة جنان موسرة ،  
وعلى حظ وافر من الجمال كأخيها عبد المجيد الذى قيل إنه كان أحسن الناس  
وجها وأدبا وملبسا . فلم تزل تغربها امرأة يقال لها « سرور » حتى ارتضت  
الرجل وهو أبو أولاد خمسة ، ثم هو فوق ذلك لم يكن لها كفوا ، بالنسبة  
لجلال قدر أبيها عبد الوهاب وموضعه من العلم ، وما لأما « بانه بنت أبي

(١) جاء في الأغاني فى الصفحة ٧٧ من الجزء ٢٠ أن عمارة تزوجها محمد بن خالد وجاء  
فى الصفحة ٣ من الجزء ١٨ أن زوجها عبد الرحمن الثقفى . وقد أخذنا بالقول الأول لأنه  
يطابق ما جاء فى شعر أبى نواس . وأما الذى ورد فى الصفحة ٤ من الجزء ١٨ من أن  
عمارة امرأة عبد الوهاب فهو خطأ صريح وصحته ابنة عبد الوهاب الثقفى .

العاصم الثقفي « من بسطة الثروة ، فضلا على أنه لم يكن هواه فيها وإنما الشره إلى ما في يدها .

ولقد شاء لمحمد بن خالد حفظه العاثر أن يكون جاره أبان اللاحق الشاعر وأن يكون عدواً له ، فنظم في موضوع زواجه بعمارة قصيدة يهجوها فيها ويحذرها منه ويحفرها إلى مفارقتة :

لما رأيتُ البزَّ والشاره والفرشَ قد ضاقت به الحارم  
واللوزَ والسكرَ يُرَمَى به من فوق ذى الدار وذى الدارم  
وأحضروا اللّٰهين لم يتركوا طبلاً ولا صاحبَ زمارم  
قلت «لماذا؟» . قيل «أعجوبةٌ محمدٌ زُوجَ عمّاره !»  
لا عمرَ اللهُ بهنا بينته ولا رأته مدركاً ثارم  
ماذا رأيت فيه؟ وماذا رجيتُ؟ وهى من النسوان مختارم  
أسودٌ كالسفود يُنسى لدى الـ تنور ، بل محراك قيارم  
يُجرى على أولاده خمسة أرغفة كالريش طيارم  
وأهله في الأرض - من خوفه إن أفرطوا في الأكل - سيارم  
ويحك ! فرسى واعصبى ذاك بي فهذه أختك فرارم  
إذا غفا بالليل فاستيقظى ثم اطفرى إنك طفارم

ويقال إنه لما انتهى الأمر بأن بلغت قصيدته هذه عمارة ، فعلت في نفسها ، وكان من أثرها ما كان بعد ذلك من هربها ، فحرم من جهتها مالا عظيما .

وكان زوج عمارة هذا بخيلاً شديداً البخل ، حريصاً غاية الحرص ، فيه  
أثرة وجفاء طبع . وكان منقطع السبب بأهل الأدب ، فليس لأبي نواس  
أو غيره من الشعراء اتصالٌ ببابه أو سبيلٌ إلى قلبه . فلا جرم يستولى على  
عاشق جنان عارضُ اليأس وشعورُ القهر :

رأيت هوى سيرته الوجيفُ      وتحزُّبني إذا اعترضت ثقيفُ  
فإن آتى - وذلك بعد كدٍ -      فدارُ « محمد » ثم الوقوفُ

ولقد زاد محمدٌ أن عمد إلى بسط لسانه في أبي نواس والتسميع بمثالبه  
وعوراته . فلم يسع العاشق إلا السكوت والإغضاء كرامةً لهوى جاريته  
الحسنة :

سأترك « خالداً » لهوى جنانٍ      وإن جلّ الذي عنه أتاني  
فقلّ من بعد ما شئت ، أوزدُ      فقد أمسيت منى في أمانِ  
لقد أغلقت بابك دون ظبي      ختمت بمقلتيه على لساني

ثم إن هذه المبالغة من مولى جنان في سترها والغيرة عليها غيرة لم تؤثر  
عنه على زوجه ، ألفت في روع الشاعر أن مولاهما إنما يفعل ذلك لأنه يهواها :  
مولى جنان وإن أبدى تجلّده      يهوى جنان فيرجوها ويخشاها  
مولاته هي « بالمعنى » وحق لها ،      والناس يدعونها « باللفظ » مولاهما  
وكانت جنان مع هذا التضييق عليها لا تخلو من الغدو والرواح لحاجاتها  
وغشيان دور جاراتها وصواحبها للزيارة . وكان أبو نواس راصداً لها حيثما

ذهبت . فاذا شهدت عرساً لم يزل جالساً حتى تنصرف منه فيراها في ذهابها  
ومنصرفها . وكان لا يراها إلا امتقع لونه ووثب قلبه في صدره لما يبدو من  
جمالها في الحلى والحلل حتى لسكانها العروس :

شهدت جلوة العروس جناناً فاستالت بحسبها النظارة  
حسبوها العروس حين رأوها فإليها دون العروس الإشارة  
قال أهل العروس حين رأوها : « ما دهانا بها سوى عمارة »  
ويصور لنا أبو نواس في هذه الأبيات ما هو ملحوظ إلى أيامنا من  
حرص النساء على عرض جمالهن في الأعراس كأنما يعارضن العروس ويغائرنها .  
ولقد صور الوهم له في هذا الشأن أن أهل العروس كرهوا ذلك أشد الكره  
من جنان ، ووجدوا منه على مولاتها وراحوا يعدونه كيداً من جهتها وعمداً .  
ويروى أن جنان حين سمعت أبياته قالت : « كأنه كان معنا ، هكذا كانت  
والله الصفة »

وكان لا يدع فرصة لرؤيتها إلا اغتمها حتى في المآتم . فلما مات بعض  
آل عبد الوهاب الثقفي ، أشرف أبو نواس من دار على منزل الثقفيين وعندهم  
المآتم ، ليرى جنانا . وكانت جنان واقفة مع النساء تلطم وفي يدها خضاب ،  
فلم يعنه من هذا المنظر الفاجع الأليم إلا النظر إليها سافرة الوجه كالبدر ،  
واستلاح هذا المتناثر المتحدّر من دموعها كاللؤلؤ الرطب من عينين نجلاوين  
لها كعيون النرجس ، واستظراف بناتها المخضوب كالعناب يواقع وهي تلتدم  
خدين كالورد :

ياقراً أبرزه ماتم يندب شجواً بين أتراب  
يبكى فيذرى الدرّ من نرجسٍ ويلطم الوردَ بعناب  
لا تبك ميتاً حلّ في حفرةٍ وابك قتيلاً لك بالباب

وكانت جنان على الدوام حسنة الزينة أنيقة الهندام ، سواء أكان خروجها الى عرس أو ماتم ، وقد لقيها أبو نواس مرةً خارجةً الى بعض الماتم بالبصرة وعليها قناعٌ وشي رقيق . فاتبعها واحتال على شهود الماتم . فلما حسرت في الماتم عن وجهها ذهل الشاعر - كدأبه - من حسننها ، وخيل إليه أن الماتم كله قد ذهل مثل ذهوله . وقال فيها :

يامنسى الماتم أشجانهم لما أتاهم في المعزينا  
حلت قناع الوشي عن صورة ألبسها الله التحاسينا  
فاستفتنتهن بتمثالها فمن للتكليف يبكيننا  
حقٌ لذلك الوجه أن يزدهى عن حزنه من كان مجزوننا

واشتد وجدُ أبي نواس بها ، فاشتد في طلبها ، وصارت شغله الشاغل لا شغل له غيرها ، فهو كل يوم على طريقها ينظر إليها بمجامع عينيه إذا أقبلت ويتبعها أينما توجهت ، ويقعد لها حتى انصرافها . وكان قد يشرب أحياناً أقداحاً من النبيذ ليشد قلبه ويسكن ما به ، فلا يجتمع ذلك على أن يتعرض لها بالكلام

ولقد شكت جنان يوماً إلى مولاها ، فشكاه إلى بعض إخوانه وسبه عندهم

ثم أشفق من هجو الشاعر له . فلما اتصل ذلك بالشاعر قال على مذهبه في هذه  
الفترة في الملاينة والمسألة .

مَنْ سَبَّنِي مَنْ ثَقِيفٍ      فإني لئن أسبته  
أبحتُ عِرْضِي ثَقِيفًا      ولطمَ خدي وضربه  
وكيف يُنكر هذا      وفيهمو لي أحبه ؟  
لأوسِعَنَّ بحلمي      عبدَ الحبيبِ وكتبه  
ولا أكون كمن لم      يُوسِعْ لمولاه قلبه  
فقام يدعو عليه      ويجعل الله حسبه !!

وعمد أبو نواس إلى رسول أوفدها مرةً إليها ، فقالت جنان لها منكرةً :  
« واضيعته ! لم يبق لي غير أن أحب هذا الكلب ؟ » وذكرته بالتقبيح  
والتهجين . فجاءته الرسول متغيرة ، فأبلغته ما قالت جنان . فقال حينئذ :

كسَرَ الحِبُّ نشاطي      ولقد كنتُ نشيطا  
جاءني عنه كلامٌ      زادني فيه قنوطا  
« واضيعاهُ ، أمثلي      يُرتجى فيه خليطا ؟ »  
لو أردتَ الوصلَ لم تج      لب من الفخر شروطا  
قد رأينا عرَبِيَّاتٍ      يُواصلنَ نبيطا

وكان أبو نواس على شغفه بجنان وعلى صدق حبه لها ، دون من كان  
يشبب بهن من النساء ، غير محدود منها . وكانت كلما ذكر اسمه عندها سبته

فوقالت : « فعل الله بالخنث الكاذب في حبه كيت وكيت » . فكان يقابل هذه الإساءات بأقوال له ، منها :

جنان تسبني - ذُكِرَتْ بِخَيْرٍ -  
وترعم أنني مدق خنيث  
وأن مودتي كذب ومين  
وأني للذي أهوى بثوث  
ولي قلب ينازعني إليها  
وشوق بين أضلاعي حثيث  
وقوله :

أتاني عنك سبك لي فسبي  
أليس جرى بفيك اسمي ! فحسبي  
تشابهت الظنون عليك في ذا ،  
وعلم الغيب فيه عند ربي  
وزالت عن هذا الماجن وقاحتها واستطالته ، فاستخذي وركبه الحب  
بالذلة وعلمه الخضوع والخنوع . كما زالت عنه شهوته للحياة وافتتانه بالدنيا ،  
فهو لزهد جنان فيه قد زهد في ملاذ الدنيا وكان لا يصبر عنها ، وهو لخلو  
حياته منها قد كره الحياة ولم تبق به حاجة إليها .

زهدت جنان في الذي  
رغبت إليها فيه نفسي  
فزهدت في الدنيا وصا  
رت منيتي في زور رمسي  
وطويت عيني أن ترا  
في عينها ، وأمت جرسي  
كيلا يروّع ذلك ال  
وجه المليح سماع جسي  
وطال على أبي نواس البلاء حتى لزمه الأرق وكاد يجن من الحب :  
تناومت جهدي فلم أرقد  
ونام الخلق ولم يسهد

وأنهض في طرباتٍ تهيبُ حجٌ، وألزم طورا فؤادي يدي  
ولقد يهتف به داعي العقل أن يعدل عن هذا العشق الذي لا منطمع  
من ورائه وفيه تلف نفسه :

دَعُ جنانًا وحبَّها      عنك إن كنت عاقلا  
لا تذكُرْ بنفسِكِ الـ      موتَ إن كان غافلا  
أنت إن لم تمتُ بها الـ      عامٌ لم تنجُ قابلا  
رُحمتُ نفسكِ التي      ذهبتُ عنك باطلا

ولكن هيات أن يعدل عن حبها، إنه كالقضاء لا مفر منه ولا نجاء. ولقد  
علمه حبها أن يتوجه الى الله بالدعاء بعد أن امتنع الصبر وعزّه الرجاء :

أيا ملين الحديد      لعبده داود  
ألن فؤاد جنانٍ      لعاشق معمود  
صب حريضٍ مبيضٍ      ناء طريدٍ شريد  
حران يدعو بليلٍ      ياللوحييد الفريد !

وظاهرٌ من هذا كله أن جنان لم تكن مثل سائر جوارى العصر ماجنة  
وقاح الوجه، متهتكة، بل هي كما وصفنا فتاة عاقلة رزان، عفيفة حسان  
خفيرة قليلة الكلام، وذلك كله مع جمال الحياء وحلاوة الملامح ولطافة  
التكوين والقوام وحسن اللبسة والهندام. فالشاعر لا يني يجمع في صفتها أنها  
نزهة طرف وفتنة قلب، وأنها ممتنعة لا تلين لمريدها ولا تقر لما يصنع بها.

وجه جنانٍ سَراةٍ بستانٍ      مجتمعٌ فيه كلُّ ألوانٍ  
مبذولةٌ للعيون زهرتهُ      ممنوعةٌ من أناملِ الجاني  
لستُ أحظى به سوى نظريُّ      يشركني فيه كلُّ إنسانٍ

واقعد أشار الشاعر الى أن لها جمالا « غير معربد » في ختام أبيات له من أمتع وأطبع ما قاله شاعر في وصف « الجمال » في أبداع مجاليه وأعجب معانيه، وهو ذلك الجمال الذي لا يزال في عينك يتجدد، يُطالعك منه بمحاسن ليست تنفذ، وكأن بعضها ينتهي وبعضها يتولد، ثم هو كلما عاودت النظر إليه كان بالعود أحمد :

وذات خديٍّ مورِّدٍ      فتانة المتجرِّدِ  
تأمل الناس فيها      محاسناً ليس تنفذ  
الحسنُ في كل جزءٍ      منها معادٌ مردِّدٍ  
فبعضه في انتهاء      وبعضه يتولد  
وكلما عدت فيه      يكون بالعود أحمد  
فاشرب على وجه بدرٍ      ريان غير معربد

ومضى الشاعر يشبب بها ويلهج بذكرها، ويشكو في شعره ما يجد بها وما يلقي في حبها، ولا مسألة له إلا عنها، ولا حديث له إلا حديثها، حتى عدله الناس في ذلك :

أما يَفنِّي حديثك عن جنانٍ      ولا تُبقي على هذا اللسان ؟  
أكلَّ الدهر قلت لها وقالت ؟      فكم هذا ! أما هذا بفان ؟

ولكنه لم يكن يضيق بعذل العاذلين مستكرهاً له نافرأ منه ، بل كان  
يحمده لهم أحياناً ويستأنس به من الوحشة إليها ، لما يرد عليه في عدلهم من  
ترديد اسمها والإمام بذكرها :

إذا ما عاذلى سماً لكِ قلتُ أعدّ ، كذا أعدّ  
وشبّ لي باسمها عدلى وزدني ، ثم زدّ وزدّ  
نهارى كلهً وغداً وبعد غدٍ وبعد غد

وقد كانت جنان كأحرّ الحرائر من النساء تتخرج من قول الشعراء فيها  
والغزل بها والتصريح باسمها. وقد انتهى إلى الشاعر كرهها لذلك، فقال معتذراً:

طفلةٌ كالغزال ذات دلال فتنةٌ في النقاب والإسفار  
أتمنى وما بكفى منها غيرُ مظلٍ وغير سوء انتظار  
ثم قالت « جهرت باسمي في الشع ر فهلاً كنيت في الأشعار »  
قلتُ « إن الهوى إذا كان بالص ب وهى قلبه عن الأسرار  
أنا جارٌ لكم قريبٌ ، ولكن ليس يُغنى لديك حقّ الجوار »

ثم استخفته الوجد ولجّ به الحنين واهتاجه الشوق إليها ، فصاح صيحته:  
جنانُ إن جدتِ يأمناى يما أملٌ لم تقطر السماء دماً  
وإن تماريتِ أو تماديتِ في منعيك أصبح بققرة رما  
عَلقتُ مَنْ لو أتى على أنفُسِ ال باقين والغابرين ما ندما

ولقد فعلت هذه التوسلات في نفس جنان واستمالتها ، فصارت أميل  
لناحيته بعد نبوّها عنه . ولقد مرت به امرأةٌ ممن تداخل الثقفين ، فسألها

عنها وألحف في المسألة واستقصى ، فأخبرته الخبر ، وانسأقت إلى المبالغة والتزيد فيه كلما رأت لهفته على السماع منها مستطار القلب مهتز الأوصال من الفرج فقالت : [ قد سمعتها تقول لصاحبة لها من غير أن تعلم أنى أسمع : « ويحك ! قد آذاني هذا الفتى وأبرمنى ، وضيق على الطرق بحدة نظره وتهتكه . ومن كثرة فعله لذلك قد لهج قلبي بذكره والفكرة فيه حتى رحمته » ثم التفتت فرأيتني فأمسكت عن الكلام ] .

وصدق أبو نواس الخبر واعتقده بنصه وحرفه ، ولم ير فيه أدنى زخرف ، ولا رابه منه قول مصنوع أو زيادة موضوعة . ولما قامت المرأة أنشأ يقول :

ياذا الذى عن جنانٍ ظلَّ يُخبرنى      بالله قُلْ وأعدُّ ياطيب الخبر  
قال : « اشتكتك وقالت : ما بليت به !      أراه من حيثما أقبلتُ فى أثرى  
ويُعمل الطرف نحوى إن مررتُ به      حتى ينجلنى من حدّة النظر  
وإن وقفتُ له كيما يكلمنى      فى الموضع الخلو لم ينطق من الحصر  
ما زال يفعل بى هذا ويدمنه      حتى لقد صار من همى ومن وطرى »

واتصلت الرسائل بينهما حيناً . وكان من لهفته يتطلع فى وجه الرسول عند عودته ولا يمله ، ليسبق باللحظ والتوسم إلى ما يجمل له ، شرّاً أو خيراً ، قبل اللفظ به . ثم إنه كان يوفده وهو كالحاسد له يتمنى لو يكونه ليعمل ساعة بالنظر إلى الموفد إليها . ويغلو به الوهم فى ذلك حتى يجد رسوله عند الإياب من لديها أحلى طلعةً وأجمل نظرة ، فيقول :

إِنْ تَشَقَّ عَيْنِي بِهَا ، فَقَدْ سَعِدْتُ      عَيْنُ رَسُولِي وَفُزْتُ بِالْخَبَرِ  
فَكَلِمَا جَاءَنِي الرَّسُولُ لَهَا      رَدَدْتُ شَوْقًا فِي طَرْفِهِ نَظْرِي  
تَظْهَرُ فِي طَرْفِهِ مَحَاسِنَهَا      قَدْ أَثَّرَتْ فِيهِ أَحْسَنَ الْأَثْرِ  
خُذْ مَقَلَّتِي يَا رَسُولَ عَارِيَةٍ      فَانظُرْ بِهَا وَاحْتَكِمْ عَلَى بَصْرِي  
وَمِنْ شُهُودِ هَذِهِ الْوَفَادَاتِ ، وَالرِّسْلِ الْمَخْتَلِفَةِ بَيْنَهُمَا غَادِيَاتِ رَأْمَحَاتِ ، شَيْخٌ  
جَلِيلٌ هُوَ الشَّيْخُ مُحَمَّدُ بْنُ حَفْصِ بْنِ عَمْرِو التَّمِيمِيِّ (أَبُو ابْنِ عَائِشَةَ) وَهُوَ  
وَقَتْنُذٍ يَتَوَلَّى الْقَضَاءَ بِالْبَصْرَةِ ، وَكَانَ مُنْصَرَفًا عَنِ الْمَسْجِدِ فَرَأَى - فِيمَا بَيْنَ دَارِ  
أَبَانَ وَدَارِ حُمْرَانَ - فَتَى لَبِيقًا ، دَمْتًا ، عَلَيْهِ ثِيَابٌ بَيْضٌ حَسَانٌ ، وَعَلَى رَأْسِهِ  
قَلَنْسُوءَةٌ مُضْرَبَةٌ ، وَاقْفًا مَعَ امْرَأَةٍ يَكَلِمُهَا . فَذَنَا الشَّيْخُ مِنْهُ وَقَالَ لَهُ : « يَا هَذَا  
إِنْ كَانَتْ هَذِهِ الْمَرْأَةُ مِنْكَ بِسَبَبٍ ، فَقَدْ عَرَضْتُهَا لِلتَّهْمَةِ وَوَقَفْتُهَا مَوْقِفَ سَوْءٍ  
وَإِنْ كَانَتْ غَرِيبَةً عَنْكَ فَحَقِيقٌ عَلَيْكَ اتِّقَاءُ اللَّهِ وَالْأَرْضِ لِعَفْوِكَ إِلَّا بِمَا  
رَضِيْتَهُ لِنَفْسِكَ » . فَالْتَفَتَ الْفَتَى إِلَى الشَّيْخِ الَّذِي يَخَاطِبُهُ ، وَقَالَ عَلَى الْفُورِ فِي  
أَدْبٍ وَظَرْفٍ : « الْقَوْلُ مَا قَلْتِ ، وَأَنَا قَابِلٌ نَصِيحَتِكَ وَغَيْرُ عَائِدٍ إِنْ شَاءَ  
اللَّهُ تَعَالَى » . فَوَلَّى الْقَاضِي وَجَعَلَ فِي طَرِيقِهِ يَفْكَرُ فِي أَمْرِ الْفَتَى فَلَا يَدْرِي أَيَّ  
شِمَائِلِهِ يُسْتَحْسِنُ ، أَسْرَعَةَ جَوَابِهِ ، أَمْ حَسْنَ مَرَاجَعَتِهِ لَهُ بِقَلَّةِ الْخِلَافِ ، أَمْ  
ظَرْفَ لِسَانِهِ . ثُمَّ دَخَلَ الْقَاضِي فِي الْمَسْجِدِ الْجَامِعِ وَجَلَسَ سَاعَةً لِلْقَضَاءِ وَالنَّظَرِ  
فِي الْمَظَالِمِ ، فَلَمْ يَشْعُرْ إِلَّا بِرُقْعَةٍ فِي الرِّقَاعِ بَيْنَ يَدَيْهِ وَكَانَ الَّذِي جَاءَ بِهَا ابْنُ  
عَائِشَةَ وَوَلَدَهُ . فَتَنَاوَلَهَا ، وَإِذَا فِيهَا :

« يقول لك أبو نواس :

إنّ التي أبصرتها سحراً تكلمنى رسولُ  
ليست هي القصدُ الذي يُومى إليه ولا السبيلُ  
أدت إليّ رسالةً كادت لها نفسى تسيلُ  
من ساحر العينين يجذب خصره ردفٌ ثقيلُ  
متقلدٌ قوسَ الصبا يرمى وليس له رسيلاً  
فلو أنّ أذنك بيننا حتى تسمعَ ما نقولُ  
لرأيتَ ما استقبحتَه من أمرنا وهو الجميلُ  
وعلمتَ أنّى في نعيمٍ لا يحول ولا يزولُ

فضحك الشيخ حين قرأها ، وقال لابنه : « قلْ له إني لا أعرّض

للشعراء . »

أما ذلك « النعيم المقيم الذي لا يحول ولا يزول » فذلك أن جنان أرسلت تسمع له بأن يزورها . ولقد وقعت هذه الزيارة وتكررت ، وكانت زوراتُه لها نهراً كما كانت قصاراً . وظهرت فيها إحدى معجزات المرأة ، بل أكبر معجزاتها بوصفها امرأة - لا مجرد أنثى . فاذا بالماجن الفاسق قد صار عاشقاً على طراز المتيمين العذريين ، يبرأ من الريبة مثلهم ، ويلقى الحبيب وليس له مثلهم في الحب من وطرٍ إلا الحديث والنظر . على أن جنان لم تلبث في تخرجها أن وجهت إليه « قد شهرتني فاقطع زيارتك عنى أياماً لينقطع بعضُ القالة . » ففعل محزوناً ، وكتب إليها يقول :

إنا اهتجرنا للناس إذ فطنوا وبيننا - حين نلتقى - حسنٌ  
فليس يُقذى عيناً معاينةً له ، وما إن تمجَّهُ أذنٌ  
ويحَ ثقيفٍ ماذا يضرُّهم إن كان لي في ديارهم سكنٌ  
أريبٌ ما بيننا الحديثُ ، فإن زدنا فزيدوا ، وما لذا ثمنٌ  
وقنع بالرسائل يدسُّها إليها ويحتمل على إبلاغها لها ، فكان يباليغ في  
تدبيجها وتهذيبها ويكثر من التأنق في عبارتها ، ليختلب الحبيبةَ ويسترضيها .  
وكان من ذلك ما لا بد أن يكون من كثرة المحو والإثبات فيها . فقام بنفسها  
- في سوء ظنها به - أن كثرة التغيير في رسائله حاصلٌ من أنه ليس يصدر  
عن صدق شعورٍ وطبعٍ ، ولتكنه التلفيق وتزوير القول . وفي ذلك يقول :  
غضبتُ لمحوٍ في الكتاب كثيرٍ قالت : « أراد خيانتى وغرورى  
كتب الكتاب على خلاف ضميره فالمحو فيه لكثرة التغيير »  
وعزمت مولاة جنان على الحج ، ورأت أن تصحبها ولا تتركها . وترامى  
الخبر إلى الشاعر من بعض رفاقه محمد بن زياد المعروف باليوؤيو ، فقال شاعرنا  
للذي أخبره : « أما والله لا يفوتنى المسير معها والحج عامي إن أقامت على  
عزيمتها ، وما على من هذا » . فظنَّ مازحاً في أول أمره . ولكنه سبقها  
إلى الخروج بعد أن أيقن أنها خارجة . وما كان أبو نواس ينوى الحجَّ عمره ،  
وما أحدث عزمه إلا خروجها .  
ولقد شوهد في الحج وقد أحزم . فلما جنَّ الليل على هذه الأرض المباركة

وقد ازدحمت بالمسلمين من أقطار الأرض مشارقها ومغاربها ، فاض عليه  
الشعور العام واشتمله ، وغلب عليه الإيمان ، واهتزت نفسه في جنح هذا  
الليل لنجوى الغيب ، فسَمِعَ يَلْبِيَّ بِشعر وهو يحدو به ويَطْرَبُ :

إِلَهُنَا : مَا أَعْدَلَكُ مَلِيكَ كُلِّ مَنْ مَلَكَ  
لَبِّيكَ ، قَدْ لَبَيْتُ لَكَ ، وَكُلُّ مَنْ أَهَلَ لَكَ  
لَبِّيكَ إِنْ الْحَمْدَ لَكَ وَالْمَلَكَ ، لِأَشْرِيكَ لَكَ

وَاللَّيْلَ لِمَا أَنْ حَاكَ وَالسَّابِحَاتِ فِي الْفَلَكَ  
عَلَى مَجَارِي الْمَنَسَاكِ مَا خَابَ عَبْدٌ أُمَّلَكَ  
أَنْتَ لَهُ حَيْثُ سَلَكَ لَوْلَاكَ يَا رَبَّ هَلَكَ

يَا مَخْطِئًا مَا أَغْفَلَكَ عَجَلٌ وَبَادِرٌ أَجَلَكَ  
وَإِخْتَمٌ بِخَيْرِ عَمَلِكَ لَبِّيكَ إِنْ الْعَزَّ لَكَ  
وَالْمَلَكَ لِأَشْرِيكَ لَكَ وَالْحَمْدَ وَالنِّعْمَةَ لَكَ

وكانت سبحة من سبحات الروح التي لا يخلو أن تطرق النفس البشرية  
مهما يكن من ضلالها أو إنكارها في لحظة من لحظات الاتصال بالقوى  
الغيبية العلوية .

فلما كان الطواف ، لقيه بعض أصحابه ، ثم فاتهم وتقدمهم ، فاذا بهم  
يروونه خلف امرأة ، ولا يكادون يرونه إلا خلفها . فلم يدروا من هي . فلما

صارا إلى الحجر الأسود فإذا بالمرأة تلثم الحجر، وإذا هو قد لثمته معها حتى ألصق  
خده بخدها في زحمة الخلق . وتفظنوا لها فإذا هي جنان . فلما انصرفا ، لقيه  
ممن راقبوه محمد بن عمرو الجماز ( ابن أخت سلم الخاسر الشاعر ) فقال له :  
« ويحك ! في هذا الموضع لا يزجرك زاجر ، ولا يمنعك خوف الله ولا يردك  
حياء من الناس ! قدر أيتك وما صنعت اليوم » . فقال : « يا أحمق ! وحسبتُ  
تقطع المهامه والسباب والرمال إلا للذي حججت له وإليه قصدت ! » . ثم  
أنشأ يقول :

وعاشقين التفَّ خدَّاهما      عند الشام الحجر الأسودِ  
فاشتفيا من غير أن يَأثَمَا      كأنما كانا على موعد  
لولا دفاعُ الناس إياهما      لما استفاقا آخرَ المسند  
ظَلَّنا كلانا ساترَ وجهه      - مما يلي جانبَه - باليد  
نَفَعَلُ في المسجد ما لم يكن      يفعلُه الأبرارُ في المسجد

وعاد أبو نواس من حجه هذا غير المبرور ، يردد قوله :

ألم تر أنني أفنيتُ عمري      بمطلبها ، ومطلبها عسيرُ  
فلما لم أجِدُ سببًا إليها      يقربني ، وأغيتني الأمور  
حججتُ ، وقلتُ قد حجَّتُ جنانُ      فيجمعني وإياها السير

وتابع أبو نواس بعد عودته إيفاد الرسل إلى جنان ، حتى أعيته الحيلةُ

فيه ، فاستنظرته إلى أن يخرج زياد<sup>(١)</sup> أخو مولاتها في سفرٍ من أسفاره ، ولم يكن ذلك إلا تعلقاً منها . فقد خرج زيادٌ ، وانقضت الأيامُ في إثر الأيام ولم توف له ولا خرجت لملاقاته . فكان يطوف بقصر التقفيين كلَّ يومٍ على حد قوله :

أطوف بقصركم في كل يومٍ  
كأن لقصركم خلق الطواف  
وهو متطلعٌ متنظرٌ على غير جدوى :

جَفَنُ عَيْنِي قَد كَادَ يَسُ قَطُّ مِنْ طَوْلٍ مَا اخْتَلَجُ  
وَقَوَادِي مِنْ حَرٍّ حَبِ كَ قَد كَادَ أَوْ نَضَجُ  
خَبْرِي نِي - فَدَتِكَ نَفْسِي وَأَهْلِي - مَتَى الْفَرَجُ ؟  
كَانَ مِيعَادُنَا خَزْوِ جَ زِيَادٍ ، وَقَدْ خَرَجَ  
أَنْتَ مِنْ قَتْلِ عَائِدٍ بِكَ فِي أَضْيَاقِ الْحَرَجِ

وكانت جنان لا يزال يساورها ويتمثل لوهما ما هو متواترٌ شائعٌ من عبث الشاعر وقبح سيرته وبعده عن جدِّ الحياة واسترساله مع المجانة والهزل . ففكرت بعد هذا كله أن تكون مثله . ورجعت إلى عاداتها من مجافاته وسوء ملاقاته رسله ، وعادت تتهمه كلما ذكر لها اسمه ، وتظهر التأذي من تهتكه فيها وغزله . فقال وهو لا يكاد يكتم غيظه :

وَإِذَا بَابِي مَنْ إِذَا ذُكِرْتُ لَهُ وَطُولُ وَجْدِي بِهِ تَنْقِصِي

(١) الأغانى فى الصفحة ١٢ من الجزء ١٦ .

لو سألوه عن وجهه حجته  
نعم ، إلى الحشر والتمنار ، نعم  
لا تشنني - ويك - عن محبته  
أصبح جهراً لا أستسر به  
« يا معشر الناس فاسمعوه وعوا »  
في سبته لي ، لقال : « يعشقتني »  
أعشقه أو ألف في كفتي  
ما دام زوحي مصاحباً بدني  
عشقتني فيه من يعنني :  
إن جنانا صديقة الحسن »  
ولقد غضبت جنان لذلك غضباً شديداً ، فأطالت هجره ومصارمته ، وأمر

الرجل على حبه لها وتشبيهه بها :

أنا أهواك ، فموتى كذا  
بأبي - لا غمك الله - أصبري  
ورآها المسكين ذات ليلة في منامه ، وكانها قد صاحته ، فاهتاج شوقاً  
إليها ، وكتب لها من فوره :

إذا التقى في المنام طيفنا  
يا قرة العينين ما بالنا  
لو شئت - إذا حسنت لي في الكرى -  
يا عاشقين اصطالحا في الصبرى  
كذلك الأحم غرارة  
عاد لنا ابوصل كما كانا  
نشقى ويلتذ خيالانا  
أتمت إحسانك يقظانا  
وأصبحا غضبي وغضباننا  
وربما تصدق أحياناً

وأخيراً أجمعت « عمارة » عزمها ، وبيّنت النية وزوجها على أن يُغيبا  
جنان عن الشاعر. وكان لمولى جنان أخ يقال له أبو عثمان ، وكان شديد الاعتقاد

بأن الجارية لم تكن من الشاعر في موضع عشق ، ولا كان مذهبه النساء ،  
ولكنه عبثاً خرج منه . وكانت لأبي عثمان ضيعة بحكمان في ظاهر البصرة  
فانتقلوا إليها ونزلوا بها . وشق ذلك على الشاعر ولاع قلبه ، وانطوى منه على  
شجو ناصب ، فكان لا يرى إلا هائماً على وجهه ، مشغول القلب ، مضطرب  
البال . وكان يقصد الجبل بالبصرة يسأل كل من أقبل من تلك الناحية ، ويحتال  
في ذلك فيجعل سؤاله عن أبي عثمان وعن زوج عمارة أبي مية<sup>(١)</sup> محمد بن  
خالد ، وغنى عن البيان أن قصده كله التقصّي عن جنان ، وما كان ذلك  
ليخفي على واحد ممن كان يتوجه إليهم بالسؤال :

أسأل القادمين من حَكمان « كيف خلفتما أبا عثمان ،  
وأبا مية<sup>(١)</sup> المهذبَ والمهَّ . مول والمرتجى لريب الزمان ؟ »  
فيقولان لي : « جنانٌ كما سرَّك من حالها ، فسَلْ عن جنان »  
ما كَلَّمْ - لا يُبارِك الله فيهم - كيف لم يُغنِ عندهم كتاني ؟

وما من ريب في أن أبا نواس كان حقيقاً بأن تنصلح حاله ويستقيم  
طبعه وتحمّد سيرته ويصحّ دينه ، لو أن علاقته بجنان في عقلها وكال أدها

---

(١) جاء في الأغاني في الصفحة ٥ من الجزء ١٨ أن (أبامية) ابن عم (لأبي عثمان)  
ولزوج عمارة محمد بن خالد . لكنه جاء قبل ذلك في الصفحة نفسها أن أبامية هو نفسه  
زوج عمارة ولعل ذلك الأصح . ويؤيده ما ورد في الأغاني في الصفحة ٢٣ من الجزء ١٧  
من أن أبامية (أمية) اسمه خالد ، وللشاعر بن منذر فيه أبيات مذكورة تشير إلى أنه  
كان يخطب نساء ثقيف فيرد لفقره - وهذه بعينها حال محمد بن خالد لولا أن نجحت (سرور)  
في الاحتيال له في الزواج بعمارة مولاة جنان .

قد دامت له ، وأدّت إلى نتيجتها الطبيعية من اقترانه بالمرأة التي يحبها ،  
والاستقرار بالحياة الجنسية في كنفها ، وطلب ما فيه الرفعة له في عينها . ولكنها  
هي وجميع من حولها - لسوء حظه وتعسه - لم يفهموه حق فهمه ، فلم يصدقوا  
أن جنان منه في موضع عشق ولا عشرة ، أو أنه يخلص يوماً في حب المرأة .  
وحسبنا في الدلالة على الأثر الطيب الذي كان لهذه العلاقة في صلاح  
سيرته وخلقه هذه الأبيات :

لولا حذارى من جنانٍ خلعتُ عن رأسي عناني ،  
وركبتُ ما أهوى وكم أجفو مقالةً من نهاني ،  
وخرجتُ أخبط سادراً لم أغن عن حبّ الغواني .  
وقد تبين أيضاً أثر ذلك واضحاً في شعره ، حتى أخذ عليه بعضهم سكوته  
عن تصوير محاسن الاجسام ونعت الخمر إلى وصف الجوى وشكوى الهجر :  
وقائلة لي « كلُّ شعرك في الهجر ! » فقلت « برغمي حيث سار به شعري  
تشاغل بالهجران ممن أحبه ، وقد كان يحلو بالمحاسن والخمر » .  
فلما أن طال الأمر بالشاعر العاشق ، وأيقن باليأس من مطلبه ، وانقطع  
منه رجاءه ، لم يطق المقام في البصرة ، فأزمع الرحيل ، وكان برغمه التوديع :  
كفي حزاناً ألا أرى وجبه حيلة أزور بها الأحباب في حكمان  
وأقسم لولا أن تنال معاشره جناناً بما لا أشتهى لجنان ،

لأصبحتُ منها دانيَ الدارِ لاصقاً      ولكنَّ ما أخشى - فُديتِ - عداني .  
أراني انقضت أيامُ وِصليَ منكمو      وآذن منكم بالوداعِ زماني  
فواحزناً يومي إلىَّ به الوري      ويصبحُ مأثوراً بكلِّ مكان  
ونزح أبو نواس يطلب ودَّ الملوكِ في بغداد .      ويخطيُّ من يحسب هذه .  
الدنيا الزاخرة الشائقة التي هو مقبلٌ عليها بالتي تذهله عن جنان .      وحسبنا في  
ذلك اعتراف الشاعر نفسه « وخرجتُ إلى بغداد وفي نفسي بقايا من حبها ،  
ما فارقتني ولا تفارقتني إلا مع خروج روعي » .

## في طريق بغداد

خرج أبو نواس من البصرة كالهائم على وجهه ، وقد اسودت في عينه  
مجالها ، وضاعت به مغانيها . فغادرها مدعياً الكره لها والتنكر لأهلها . ولا  
شك في أنه كان يجد للذكرى وجداً عظيماً ويحس لها مضاً أليماً ، حتى بلغ في  
طلبه النسيان أنه عمد إلى المراسلة بينه وبين خاصة الإخوان في البصرة  
فقطعها :

قولاً « لعباس » لكي يدري      انبلام عكّ قُدوة المِصرِ  
« قيم الكتاب إلى تخبرني      بسلامة - في البطن والظهرِ  
فاقطع بسيف صارمٍ ذكر      أسباب كتب بيننا تجرى  
فإن امتنعت فلا مواترة      حسبي كتاب منك في الدهر  
واجمع حوائجك التي حضرت      عند الكتاب إلى - في سطر  
ما ذاك إلا أنتي رجل      لا أستخف صداقة البصري

على أنه غير قمين بالقارىء أن ينخدع بهذا القول في حالة السخط واليأس  
فقد عاد الشاعر يحن إلى موطنه في البصرة . ويشتاق منازلها ومعاهد صباه ثم

ولكنه كان يتكلف الصبر ، ويلزم نفسه السلوان ، متلهياً بالشرب والقصف  
في الحانات والمتنزعات ، كما تشهد بذلك هذه الأبيات :

عفا المصلي ، وأقوت الكُتْبُ      مَنِّي فالمرِّبدان ، فاللببُ  
فالمسجدُ الجامعُ الروءِ والد      ين عفا ، فالصَّحان فالرحبُ  
منازلٌ قد عمرتُها يفعاً      حتى بدا في عذارى الشهبُ  
في فتية كالسيوف هزهمُ      شرح شباب وزانهمُ أدبُ  
ثم أراب الزمان فاقسموا      أيدي سباني البلاد فانشعوا  
لن يخلف الدهر مثلهم أبداً      عليّ - هيات - شأنهم عجبُ  
لما تيقنت أن رُوحتهم      ليس لها ما حيث منقلبُ  
أبليت صبراً لم يُبليه أحدُ      واقسمتني مآربُ شعبُ  
كذاك أني إذا رزئتُ أخا      فليس بيني وبينه نسبُ  
قطرُ بلٍ ربعي ، ولي بقري ال      كرخ مصيف ، وأمى العنب  
ترضعني درها ، وتلحفني      بظلمها والهجيرُ يلهبُ  
إذا ثنته الغصون جلاني      فينان مافي أديمه جوبُ  
تبيت في ماتم حائمه      كما ترثي الفواقد السلبُ  
يهبُ شوقي وشوقهن معاً      كأنما يستخفنا طربُ  
فاذا أضفنا إلى هذه أبياتاً له أخرى يقول فيها :

أياً من كنت بالبه رة أصفي لهم الودا  
(٦ - ٧)

ومن كانوا موالىً      ومن كنت لهم عبدا  
ومن قد كنت أرعاه      وإن ملّ وإن صدّا  
شربنا ماءً بغدادٍ      فأناسنا كم جِدًّا

لم يبق موضعٌ للشك في أن شاعرنا نزع من البصرة لأنه خاب في حبه  
وفُجِعَ في قلبه . ولقد بلغ به الكدُّ والكربُ أن بدت في عذاره ومفرقه  
رواعى الشيب ، ولما يزل في شرح الشباب وريعانه .

وأخذ الشاعر في طريقه الى بغداد . فعاج بالكوفة فيما عاج به من  
البلاد . وهو فيما كان عليه من حال لم يكن يقصد منها الكوفة الجميلة المعروفة  
بالعلم والعلماء ، وإنما كان يقصد منها الكوفة الموسومة بخد العذراء ، تلك  
التي عرف سوادها وجاس أرباضها وشرب في دساكرها وحاناتها ، وأطلع طلع  
ملاهيها ، ونخب مواضع القصف فيها ، أيام عشرته لوالبة ومقامه معه . إنه اليوم  
لأشد حاجة الى الشكر ، وأفسح عذراً في التلهي والقصف ، تفرجاً عن  
همه وتخففاً من يأسه القاتل وهرباً من نفسه . ولقد لقي صاحبنا في الكوفة  
من الندماء من أحسد مودتهم وارتضى صحبتهم وأنس بمنادمتهم ، حتى ختم  
قصيدته الرائية في ذم البصرة بقوله :

ذهبت بنا « كوفانُ » مذهبها      وعدمتُ عن ظرفائها صبرى  
وكان بظاهر الكوفة وحوها مواضع من أنزه البقاع وأطيبها ، كثيرة  
المياه والرياض ، وكانت تقوم في معظمها ديارات للنصارى . وكان الرهبان في  
انقطاعهم بهذه المواضع يعملون إلى جانب العبادات لتزويد الدير بحاجاته وتوفير

موارده . فهم يتخذون حوله المزارع والمباقل والبساتين والكروم ، وإلى ناحية من الكروم يتخذون معاصر الخمر . ولقد كان ما يزيد على حاجة الدير يباع للارتفاق بثمنه . ومن ثمة كان للأديار تجارة بمزروعاتها من الثمار والزعفران وعلى الخصوص بمعتقاتها من الخمر ، وهي من قديم « المشهورة في الآفاق ، المعروفة مغارسها بطيب الأعراق » . ولقد كثر طلب أهل الشراب من المساهين للخمور النصرانية لارتياض النصراني باعتصارها وحثهم له ، فضلاً على ما اختصت به معاصر الأديار من النظافة . وكان من هذا الإقبال أنه تأدى بالرهبان إلى اتخاذ الحانات إلى جانب الأديار لبيع خمرها لمريديها . فكان يقصد إليها فيمن يقصد أصحاب اللهو والحمان من المساهين ليشرّبوا الخمر العتيقة ، في الأنية النظيفة الأنيقة ، على الوجوه الحسان ، بين الرياض والبساتين الحالية بصنوف الأزهار والرياحين ، وعلى قرع النواقيس وأنغام التراتيل والقراءات في المزامير والأنجيل ، وغير ذلك من التلاحين البيعية

ولقد عاج أبو نواس في طريقه إلى بغداد على حانات هذه الأديار التي كانت كثيرة حول الكوفة وفي ظاهرها ، فكان يشرب فيها حتى يسكر ، ولم يكن بعد قد تعود الإدمان عليها والعب فيها :

وقهوة عتقت في دير شماش      تفتت في كأسها عن ضوء مقباس

مزاجها دمع حاسيها ، فأى فتى      لم يبيك إذ ذاقها من حرقة الكاس

سلم ، ولكنها حرب لذائقها      يا حبذا بأسها ما كان من باس

وكان مع هذا يحمل بالشراب على نفسه ، ولا يدع الساقى يفترعنه ،

ولا يبرح يناشده أن يمحث المدامة إليه ويديرها مراتٍ بعد مراتٍ عليه . وإنه ليتبادر للخاطر أنه كان يشرب لا للشرب ولذّته ، وإنما تعجلاً لسكرته والتماساً لذهول العقل وغيبة الفكر :

رُدًّا عَلَى الكَأْسِ إِنكَمَا لَا تَدْرِيانَ الكَأْسَ مَا تُجْدِي  
لَوْ نَلْتِمَا مَا نَلْتُمَا مُزَجَّتْ إِلَّا بِدَمْعِكَمَا مِنَ الوَجْدِ  
وظاهرٌ من هذا أنه قد عكف على الكأس حين عكف ليغرق الهمَّ  
في كأسه ، وليخرج بالسكر عن حسّه وينسلخ عن ذكرى أمسه . فهل تراه  
أدرك من ذلك مبتغاه وبلغ ما في نفسه ؟ هيئات ، بل كانت هذه المجالس  
التي جلسها للشرب في الأديار على رنين النواقيس وترانيم الرهبان وأنواع  
التطريب والألحان أدعى للذكر وأورى عنده لئار الوجد ، حتى لتغلب الحال  
عليه وتطفح به ، فيظهر طربه خارجاً عن القصد متجاوزاً للحد ، يحسبه  
منادموه عربة منه لخفاء سره وجهلهم لأمره :

إِذَا شَأْكَ نَاقُوسٌ وَشَجْوُ النَّايِ وَالْعُودُ  
وَعُودِيَتَ بَرِيْقِ الخَمْرِ مَجَّةِ العِناقِيْدِ  
تَطَرَّبَتْ إِلَى الإِلفِ فَقَالُوا أَنْتَ عَرَبِيْدِ  
وَهَلْ عَرَبِيْدِ مَكْرُوبٌ قَرِيْحِ القَلْبِ مَعْمُودِ!

ولقد كان من الدواعي المحببة للشرب والمغرية به موقعُ الأديار بين الجنان  
المونقة والغدران المترققة ، أو على الرّوابي العالية المطلّة على الأودية الناضرة  
والمياه المتحدرة والسهول الفسيحة . ولا شك في أن رقّة الهواء ، ورواء المنظر

وحسن المستشرف، وهذه الألوان البهيجة المشبوبة، والطور المتزجة المشوبة، من شأنها أن تشد الحواس وتنبيه مراكز العصب، فيتحرك الحب في قرارة كل قلب. وإذ لم يكن لشاعرنا المهجور أمل في الحب، فقد انصرف إلى الشرب في هزة طربه واهتياج مشاعره. وهذه أبيات له في دير مريونان - ويقال له أيضاً عمريونان - في الأنبار على ضفة الفرات، وهو دير كبير عليه سورٌ محكم، ورياضه غناء فيحاء:

آذَنكَ الدَّقُوسُ بِالْفَجْرِ      وَغَرَّدَ الرَّاهِبُ فِي الْعُمُرِ (١)  
وَحَنٌّ مَخْمُورٌ إِلَى الْحَمْرِ      وَجَاءَكَ الْغَيْثُ عَلَى قَدَرٍ  
وَاطَّرَدَتْ عَيْنَاكَ فِي رَوْضَةٍ      تَضْحَكُ عَنْ خُضْرٍ وَعَنْ صُفْرِ  
فَعَاطِ نَدْمَانِكَ مِنْ خَمْرَةٍ      مَزَاجُهَا مِنْ مُغْرِقِ الْقَطْرِ  
عَلَى خَزَامَاهَا وَحَوْذَانِهَا      وَمَشْكَلٍ مِنْ حَالِ الزُّهْرِ  
فِي مَسْرَحٍ تَرْتَعُ أَكْنَافَهُ      شَوَادِنٌ مِنْ بَقْرِ زُهْرٍ  
يَا حَبِذَا الصَّبِيحَةَ فِي الْعُمُرِ      وَحَبِذَا نَيْسَانَ مِنْ شَهْرِ  
يَا عَاقِدُ الزَّنَارِ فِي الْخُمْرِ      بِحَرْمَةِ الْحَسَانَةِ وَالْفَهْرِ (٢)  
لَا تَسْقِنِي - إِنْ كُنْتَ بِي عَالِمًا -      إِلَّا الَّتِي أَضْمَرْتُ فِي صَدْرِي  
هَاتِ الَّتِي تَعْرِفُ وَجَدِي بِهَا      وَكُنْ بِمَا شِئْتَ عَنِ الْحَمْرِ

ومن الديرة التي عاج بها أبو نواس بظاهر الكوفة على بعد يومين منها دير حنة، وهو دير قديم في بقعة كثيرة الرياض والبساتين، تحاذيه منارة

عالية كالمرقب تسمى القأم ، وبه بيوتٌ صغار يسكنها الرهبان الذين لا قلالٍ لهم وتُسمى هذه البيوت بالأكيراخ . ولعله من أدلّ الشواهد أيضا على ما كان يمكن أن يكونه أبو نواس لولا شؤم مصادفاته وفساد بيئته ، ما دخل على نفسه من شعور حين طرق هذا الدير وكلُّهم أن يسكر من معتقات دنانه، وينظر الى ظبائه من الإنس وغزلائه، على حد قوله :

يادير حنة من ذات الأكيراخ من يصحُّ عنك فإني لست بالصاحي  
رأيتُ فيك ظباء لا قرون لها يلعبن منا بألباب وأرواح  
فانه مع ما كان من سكره ومجونه ، لم يلبث أن راعه وأخذ بقلبه هذا  
المشهد المائل لعيناه للزهد في متاع الحياة ، والإعراض عن الدنيا والانتفاع لله .  
فقد جعل - وبه شعورٌ مخامر من العجب الذي لا ينقضى والارتياح الذي  
لا يدري كنهه - يتأمل هؤلاء الرهبان وهم فتية شبان قد انحلم القنوت  
والتقشف ، وشفهم التهجد والتعبد ، وأذابهم طول التفكير والخوف  
من نار السعير ، فلا يرى الناظر إليهم إلا أشباحا ، محفوة مفارقهم ، محوقة  
رءوسهم ، عليهم من ثياب الرهبانية مسوحٌ خشنة بالية ، وقد عرّفوا في  
مطالب العيش عن كل زيادة ، وحرّموا على أنفسهم من أسباب الترف أهون  
وسيلة وأدنى آلة ، حتى ليشرّبون من الغدران بغير آنية اغترافاً بأيديهم .  
فاسمع إليه يقول فيهم :

دع التشاغل بالذات - يا صاح - من العكوف على الريحان والراح  
واعدلْ إلى فتية ذابت نفوسهم من العبادة ، نُحفِ الجسم ، أطلّاح

لم يبق منهم لرائهم إذا حصلوا - حذار ما خوفوه - غير أشباح  
تلقى بهم كل محفور مفارقة من الدهان ، عليه سحق أمساح  
لا يدلون إلى ماء بآنية إلا اغترافاً من الغدران بالراح  
ولقد بلغ من قيام هذه الصورة بنفسه، ومن تحقق معناها في حسه، أن عاد  
إليها بمثل هذا الوصف من البحر والقافية :

دع البساتين من آس وتفتح واعدل - هُدَيْتَ - إلى ذات الأ كيراح  
إعدل إلى نفر دقت شخوصهم من العبادة إلا نضو أشباح  
يكررون نواقيساً مرجعة على الزبور يامساء وإصباح  
تُبعِدُ بسمعك عن صوت تكرر هه فلست تسمع فيه صوت فلاح  
إلا الدراسة للإنجيل من كتبٍ ذكر المسيح بإبلاج وإفصاح

على أن الشاعر لا يلبث حتى يعاوده ما تعودته أمثاله من السكر والمجون،  
فتراه بعد أن عدل - في هاتين المقطوعتين - عن الريحان والراح والآس  
والتفاح، إلى ذكر العبادة والصلاح، ووصف العابدين أنضاء النسك كالأشباح،  
ينتقل إلى ما كان عليه من التغنى بالحجرة المعتقة التي يُتَحَفُونَ بها الضيوف في  
القعب الكبار، وإلى التغزل بالراهب القتي الذي داربها عليهم وقد صار  
بعد السكر ينعت نحو له بالهيف، وعاد يستظرف ما عليه من مسوح الرهبانية  
ومدارع الصوف . وكذلك ترجع نغمة شعره إلى وتيرتها، وتعود حياته  
الماجنة سيرتها، فيختم أوصافه للدير وأهله كما بدأها :

يا طيبه وعتيقُ الراح تُحَقِّقُهُمْ بكل نوع من الطاسات رَحْرَاح

يسقيكها مَدْمَجُ الخصرين ذوهيفٍ . أخو مدارع صوفٍ فوق أمساحٍ  
ولقد كانت الأديار كثيرةً في العراق والجزيرة والشام وغيرها ، وكان  
بعضها على جانب عظيم من حسن العمارة ونفاسة البناء ، وقد تحصَّنها الأسوارُ  
الشاهقة والأبواب المفرطة في السكبر من حديد مُصمَّتٍ أحياناً ، وكان منها  
ما تعلوه القبابُ المنيقة تُرعى من بعيد . وكان لبعضها زينةٌ في داخلها نهاية  
في البهاء والرواء . فمنها ما كانت مزوّقة الجدران بأشكال النقوش والقصوص  
المذهبة ، مفروشة أرضها بصنوف الرخام المجزَّع والمرمر المسنون الممرد لا تستقر  
عليه القدم ، وفي سقوفها الذهب والفسافس واللازورد ، وقد علقت في هياكلها  
القناديل من فضة ، واتخذت لها الصليبان من ذهب . وفي أركانها وآزاج  
طيقانها الدُمى محفورة منقوشة بأنواع الأدهان ، وفي سقوفها وحيطانها صور  
مرسومة ملونة بأزهي الأصبغة والألوان . وفي الصدر صورةُ المسيح وعلى  
رأسه إكليلُ الشوك ، أو صورة مريم في غاية من إتقان الصنعة « كما ملت  
من ناحية كانت عينك إليها » .

ولقد كانت الأكوابُ التي يُسقى بها ضيوفُ الديرة من ذهب أحياناً ،  
وكان منها الأملس الغفل ، ومنها المنزل المحفور بأنواع الرسوم الدينية . ولقد  
شرب أبو نواس خمره ذهبية اللون في أمثال هذه الأكواب الذهبية ، فقال :

أقول لما تماكيا شههاً أيهما - للتشابه - الذهبُ  
هما سواء ، وفرقُ بينهما أنهما جامدٌ ومنسكب

مُلسٌ ، وأمثالها محفرة . صُوِّرَ فيها القسوسُ والصُّبُ  
يتلون إنجيلهم ، وفوقهم سماءُ خمر ، نجومها الحَبُّ  
ولقد كان من كثرة غشيان الشعراء الجمان أمثال أبي نواس لحانات هذه  
الأديار أن كثر في أشعارهم وُرُودُ أسماءها والتغني بجمورها ووصف بساتينها .  
وقد ألموا في تلك الأشعار ببعض شعائر النصارى ومصطلحاتهم وإن كانت  
لا تخلو أحيانا من بعض التخليط ، كالذي يزعمونه عن ليلة الماشوش وما  
يجرى فيها من إباحات واستهتار بالمحارم مما لا يُقرّه دينٌ ولا يصحّ في عقل .  
وإلى هذا الوهم يشير أبو نواس في أبيات له في تفضيل بهروز الفارسي على  
الغلمان النصارى :

نقى في الولادة عن مشوشٍ . يرخسه النصارى للقسوسِ  
وحسبنا لبيان إمام هؤلاء الشعراء المسلمين بالشعائر النصرانية في أعياد  
القوم ومتعبداتهم هذه الأوصافُ لأبي نواس :

كأنما الكأسُ إذا صُفِّتْ قنديلُ قسٍ وَسَطَ محرابه

وله في فوران الخمر في إبان تعتيقها في الدنان :

أقامت حقةً في قعرِ دنٍ تفور وما يحسُّ لها لهيب

كأن قراتها في الدن تحكى قراءة القسِّ قابله الصليبُ

وقوله متغزلا :

عيناي تشهد أني عاشقٌ لكم يا دُمَيَّةُ صوِّروها في الحباريب

وأخيراً هذه الأبيات في المجون يخاطب فتى نصرانيا اسمه عبد يشوع بن

بماری سرجس :

بعمودية الدين العتيق      بمطرٌ بليطها ، بالجائليق<sup>(١)</sup>  
بشمعون ، بيوحنا ، بمتي ،      بماری سرجس القس الشفيق  
بماتِ مريم ، وبيومِ فصح ،      وبالقربان ، بالخر العتيق  
بميلاد المسيح ، بيومِ ذبح ،      وباعوث<sup>(٢)</sup> لتأدية الحقوق  
وأيام السعانيين<sup>(٣)</sup> المبدى      وشمعة النصارى في الطريق  
لهيكل أسقف ، وبما يليه ،      ونشر البند والعلم الخفوق  
وبالصلبان ترفعها رماح<sup>٤</sup>      تلالا ، حين تومض بالبروق  
وبالناقوس في البيع اللواتي      تُقام بها الصلاة لدى الشروق  
بداود وما يتلون منه      بترجيع يُردد في الخلق  
بقلايات دومة ، بالمقاسي      ومذبح ديرها الحسن الأنيق  
ورهبان الصوامع في ذراها      مقامهم على جهدٍ وضيق  
بكنس الزوم والشامات طرا<sup>٥</sup>      بقسطنطينة البلد السحيق  
لقد أصبحت زينة كل عيد<sup>٦</sup>      ودين ، مع جفائك والعقوق

ومن مقطوعة أخرى :

(١) الجائليق مقدم الأساقفة (٢) الباعوث : عيد للنصارى كالأهتسقاء للمسلمين

(٣) السعانيين أو الشعانيين عيد للنصارى قبل الفصح بأسبوع .

بروح القدس والميلا د والهيكل والذبح  
وصورة مريم العليا وبالسلاق<sup>(١)</sup> في الصباح  
ومثلها :

بسجود التسييس يوم السجود والصليب المعظم المعبود  
وبناقوس بيعة اللحم حقاً وبأقفاها وبالإقليد  
وبما في بيوتها من رخامٍ وبما تحت سقفها من عمود  
وغير ذلك كثير من الأقسام التي تشتمل في مضامينها على جملة أوصاف  
شعائر النصرى وسنتهم ومشاهد مواكبهم ومصطلحات دينهم ومنعبداتهم .  
وفيا ورد منها الكفاية وفوق الكفاية للدلالة على اتصال المسامين بهم اتصال  
معرفة ومودة ، وعلى اغتنام الخلقاء والتماجنين لأيام أعيادهم للنظر إلى محاسن  
فتياتهم وفتياتهم في الحللى والحلل في غدوهم إلى البيع والكنائس ،  
والتعرض لهم أحيانا بالغرل والعبث .

على أنه يحسن أن ننبه هنا إلى أن ما يرويه أبو نواس وأمثلة من  
خلاعاتهم ورفاعاتهم في الأديار في عصابة من الفتاك الخلقاء ورفقة من الشطار  
والفتيان المفايد ، إنما ينصرف إلى الحانات والبساتين التي حولها ، كما هو  
واضح جلياً من شعره :

بدير نهر اذات لي مجلسٌ وملعبٌ وسط بساتينه

(١) السلاق : عيد للنصرى وفيه تسلق السبح مصعداً الى السماء

رحت إليه ، ومعى فتيةٌ  
بكل طَلَّابِ الهوى فاتكٍ  
حتى توأمننا إلى مجلسٍ  
والترجس الغضّ لدى ورده  
وجيء بالذنّ على مرفعٍ  
واقصد الأكل من دننا  
وطاف بالكأس لنا شادنٌ  
يكاد من إشراق خديه أن  
فلم نزل نسقى ونلهو به  
حتى غدا السّكران من سكره

نزوره يوم سـعائنه  
قد آثر الدنيا على دينه  
تضحك ألوانُ رياحينه  
والوردُ قد حُفَّ بنسرينه  
وخاتم العليج على طينه  
فانصاع في حمرة تكوينه  
يُدميه مسُّ الكف من لينه  
تُختطف الأبصار من دونه  
ونأخذ القصفَ بآيينه  
كالميت في بعض أحيائه

ومثل ذلك كان مجلس شاعرنا في طيزناباذ بين الكوفة والقادسية .  
ودياراتها ذات قباب ، وهى من أنزه المواضع ، محفوفة بالكروم والشجر ، وفيها  
المعاصر والحانات ، وكانت أحد المواضع المقصودة للهو والبطالة . والقول هنا  
أيضا معدول عن الدير إلى بستان صاحب الدير ( وهو العمّار أى الديرانى ، من  
العُمُر وهو الدير ) :

يا حبذا مجلسٌ قد كان يجمعنا  
وحبذا أم عمّارٍ ورؤيتها  
تعلنا بدمٍ قد تناولها  
لم نخط من خدرها شبراً إلى أحدٍ

بطيزناباذ في بستان عمّار  
خماراً أصبحت أمّا لعمّار  
ريبُ الزمان وعصرٌ بعد أعصار  
ولم نزل بين جنات وأنهار

ولعل أبا نواس لم يدع في طريقه إلى بغداد ديراً أو عُمرًا ، ولا قلايةً  
أو كِرْحًا ، إلا ألمّ به ، فهو لا يفتأ يلج بذكر ديارات الحيرة وطيزناباد والأنبار  
وغيرها ، مردداً اشتياقه لها وما يعتاده من الحنين إليها ، تجديداً لمجالس شربه  
في حاناتها ، وملاهيته في بساتينها :

أنا والله مشتاقٌ إلى الحيرة والحمر  
وأصواتِ النواقيس على الزيرات بالفجر  
ومشتاقٌ إلى الحانا ت يوم الذبح والنجر  
ومثقنٌ في طلاب المرُ د والحمر معاً وفرى  
أما والله لو تسمع ما قلتُ من الشعر  
لايستَ من أفلاحي يقيناً آخرَ العمر .

ولقد أفادته هذه الرحلة مع ذلك حب الطبيعة ، إذ جلتها أجمل جلوة  
في عينه ، وقرّبتها إلى قلبه ، وخلطتها بحسه ، فظهر أثر ذلك جلياً في شعره .  
على أن هذا الحب للطبيعة لم يرتفع عنده إلى وقفة التعبد في هيكلها والخبوت  
لروحها والشعور الديني بحضرتها والاتحاد الصوفي يروحها ، وإنما كان قصاره  
أن جعله دائم الصبوة إلى طيب المجالس في رياضها ، سريع النشوة بعطورها  
وأطيابها ، متطرباً إلى خرير جداولها وأطيابها ، منجذب العين إلى أنواع  
ريحانها ومشبوب ألوانها ، حتى صار لا يطلب شيئاً طلبه للشرب في أحضانها  
كأنما يرتضع الحمة من لبنها . ومعنى ذلك أنه وإن يكن عاشقاً من عشاق

الطبيعة لم يكن عشقه لها إلا من نوع العشق الحسى لا يعنى بغير الماموس المحسوس .  
فالطبيعة عنده - كما قدمنا - ليست معبداً ، ولكنها مرتعٌ موقن للهو واللعب  
لا مرتعٌ مثله ، ومجلسٌ مانوس للسكر والطرب لا يعدله مجلس . وهنا يتشاغل  
هذا الحب الحبيب عن هوى «جنان» بهوى المرء والقيان . وهنا تلتقى هذا  
الشاعر العالم يغالب بالشراب أحزانه ويطفى به وجدّه وأشجانّه ، لو صح أن  
اللذة تغنى غذاء الحب ، وأن الخمر تطلق النفس من عقال الهمم ، وتفرغ برد  
العزاء على حر الأحشاء ، كما زعم صاحبنا المحروم المحزون :

لا تَخْشَعَنَّ لِطَارِقِ الْحَدَثَانِ      وادْفَعْ هُمُوكَ بِالشَّرَابِ الْقَانِي  
أَوْ مَا تَرَى أَيْدِي السَّحَابِ رَقِشَتْ      حُلَّ الثَّرَى بِطَرَائِقِ الرِّيحَانِ  
مِنْ سَوْسِنٍ غَضَّ القَطَافِ ، وَخُزْمِ      وَبِنَفْسِجٍ ، وَشَقَائِقِ النِّعَمَانِ  
وَجَنِيِّ زَرْدٍ يَسْتَبِيكَ بِحَسَنِهِ      مِثْلَ الشَّمُوسِ طَلَعْنَ مِنْ أَغْصَانِ  
حُمْرًا وَبَيْضًا يُجْتَنِينَ ، وَأَصْفَرًا      وَمَلُونًا بِيَدَائِعِ الْأَلْوَانِ  
كَعُقُودِ يَاقُوتِ نَظْمِ وَلَوْلُؤِ ،      أَوْ سَاطِئِ فَرَائِدِ العُقَيَانِ  
وَمِنْ الزَّبْرِجِدِ حَوْلَهُنَّ مِمثَلًا      سَمَطًا ، يَلُوحُ بِجَانِبِ البَسْتَانِ  
فَإِذَا الهمومُ تَعَاوَرَتِكَ فَسَلِّهَا      بِالرَّاحِ وَالرِّيحَانِ وَالنَّدَمَانِ

## دار السلام في عصرها الذهبي

تعجّل الشاعر رحلته الجميلة بعد مطاولةٍ وحثّم مطافه ، وأقبل لأول عهد الخليفة هارون الرشيد قادمًا على دار السلام ، بغداد التي اختطها المنصور فأصبحت أزهى وأزهر حواضر الإسلام .

ولا شك أنه قد داخلته الروعة ، وامتلأت نفسه جلالاً ، وشبعت عينه فتنةً ، وهو يستشرف إليها ، ولقد بدت أسوارها المكينة العريضة الجدران ، الشاهقة البنيان ، كالقلعة الحصينة . وكان يدور حولها خندقٌ ، ومن ورائه مسنّة<sup>(١)</sup> بالآجر والصاروج<sup>(٢)</sup> متقنة محكمة عالية . وكان دخول « أبي نواس » من المدخل المقابل للطريق التي أتى منها - أي من باب الكوفة . فإذا هومنه في دهليز عظيم أزج<sup>(٣)</sup> معقود بالآجر والجص ، في جوف السور الخارجي الكثيف ، وكان عليه بابٌ كبير جليل المقدار لا يغلقة ولا يفتحه إلا جماعة رجال . ثم أفضى من هذا الدهليز إلى رحبة مفروشة بالصخر طولها ستون ذراعاً ، مسورة غيره مسقوفة ، وهي مادة في انحراف وازورارٍ

(١) ما يبني في وجه السيل : السد (٢) الآجر ما يبني به من الطين المطبوخ ( الطوب الأحمر ) . الصاروج الكلس ( الجير ) وأخلطه (٣) على هيئة ساباط مطول مرتفع

إلى سور المدينة ، تشقّ براح الفصيل الدائريين الأسوار الخارجية والأسوار الداخلية ، وفي حائطى هذه الرحبة عن اليمين والشمال بابان في جنبتيها يشرعان<sup>(١)</sup> إلى الفصيل . فلما اجتاز صاحبنا الرحبة انتهى في صدرها الى الباب الثانى ، وهو باب المدينة فى سورها الأعظم الذى عليه تقوم الأبراج العظام والشرفات المدوّرة . ومضى القادم المدهوش يخترق الدهليز الثانى فى جوف السور الداخلى والدهليز أزج معقود مثل سابقه ، عليه بابا حديد جليان عظيمان ، يدخل منهما الفارسُ بالعلم والرامي بالرمح الطويل من غير أن يُميل العلم ولا يثنى الرمح . وتأتى بعد ذلك الرحبة المربعة تنتهى الى طاقات<sup>(٢)</sup> معقودة ، فيها كواك<sup>(٣)</sup> رومية يدخل منها الشمس والضوء . وعلى طاق المدخل بابٌ ساج كبير من فردين ، وفي جنبتي الطاقات بين كل طاقتين عُرفٌ للمرابطة .

وكان باب المدينة الذى دخل منه شاعرنا - كسائر أبوابها الأربعة - تعلوه قبة عظيمة تناطح السماء ، مذهبة مزخرقة ، معقودة فوق مجالس يُشرف منها على كل ما يجرى حولها ، ويُصعد إليها على عقود مبنية بعضها أعلى من بعض ، وفي داخلها الديادية والحرس ، وعلى رأس كل قبة تمثالٌ تديره الرياح لا يُشبهه نظائره على القباب الأخرى .

وانتهى أبو نواس من هذه الأسوار والدهاليز والطاقات والأبواب التى تحرسها الجند ، إلى داخل المدينة العظيمة . فإذا داخلها لا يكذب ظاهرها .

(١) يفتدان إليه (٢) جمع كوة (٣) الطاق : ما عطف من البناء والجمع طاقات أى أقواس من البناء

فهي من وراء ما يتصوره وهم الواهم من أهبة العجالة ، وفوق ما يقدره حسابان الخاسب من رواج التجارة ، ثم هو على أشد الزحام بالناس أخلاطاً من سائر الأجناس . ولعلّ أعظم ما شاقه منها وارتاح إليه فيها ذلك الطابع الأعجمي الذي يطبعها ويغلب عليها في كل شيء .

فبانيها وقصورها ومصانعها على مثال من الهندسة فيه الفارسيّ والبيزنطيّ وقد حوّطوها بالأسوار، وجعلوا في سطوحها القباب مرفوعةً على العمُد الدقاق كأنها معلقة في الهواء . وزينوا جدرانها وسقفها بالنقوش الملونة ، وفصوص الفسيفساء المذهبة ، وتصاوير النبات من ثمار وأغصان ، ورسوم الطير والحيوان من طواويس وغزلان . وكتبوا الآيات بالذهب المجسم ، وحفروا المناظر المثابة للحياة على المعدن، واتخذوا الزجاج الملون على دوائر الأبواب والقمريّات . وعمدوا في صنع أطرها إلى الآبنوس وغيره من الخشب الثمين . وتأنقوا في اتخاذ الجنات في قصورهم وتنسيق المتنزهات يجلبون إليها بدائع الأعراس وغرائب الأطيّار من أطراف الأرض ، ويسوقون إليها الجداول وبينون السقايات . ويحتفرون البرك تجري فيها الزواريق للهو والغناء في الليالي القمراء وكان من هذه القصور ما يرجع عهده إلى المنصور مثل «قصر الذهب» الذي بناه وسط بغداد المدوّرة ، وفي صدره الإيوان تنعقد فوق مجلسه الأعلى القبة الخضراء منيفة ترى من أطراف المدينة ، وعلى رأس القبة تمثال فرس عليه فارس وفي يده رمح . وكانت هذه القبة تاج بغداد ، وعلم البلد ، ومأثرة

راسية الأساس لموطد مُلكِ بنى العباس . ثم « قصر الخلد » على شاطئ دجلة وموضعه وراء باب خراسان . وقد جاءت تسميته تشبيهاً له بجنة الخلد ، لما يحويه من عجيبٍ فائقٍ وجميلٍ شائقٍ من كل ما تشتهى الأنفس وتلذ الأعين ، وكان الخليفة هارون الرشيد يقيم وقتئذ فيه . وعلى مسافة قريبة منه قصر الملكة زبيدة المشهور بدار القرار . وكان القصران متقاربان على الضفة الغربية من النهر . وكان بحذاءهما من الجانب الآخر قصور البرامكة لا تقل عنهما عظمةً وأبهة . ثم غير هذه وتلك قصورٌ عدةٌ على جانبي دجلة للأمرء والوزراء ورجال الدولة وذوى الجاه والثروة ، عدا الدور والأسواق والجوامع والحمامات وهي لا تحصى كثرة .

وقد ذكر أبو نواس « قصر الخلد » في بعض أشعاره :

كنت « بقصر الخلد » في روضة      تخرقها الأنهارُ بالسفنِ  
خَلَا لها الوردُ لدى نرجسٍ      معتنقٍ للآسِ في غصنِ  
نيط بتفاحٍ إلى مشمشٍ      بين نخيل الطنِّ والبرنِ  
ياحبذا النوار نواره      مختلف الهجة في الحسنِ  
من أصفرٍ ينو إلى أحمرٍ      وأبيض في اللون كالقطنِ

كما أشار إلى ما كان في قصر المهدي من حسان الطواويس في قصيدة في باب الطرديات ينعت ديكاً من ديوك الهند :

أنعت ديكاً من ديوك الهندِ      أحسن من طاووس « قصر المهدي »  
ومن إشارته لقصور الأمرء قوله في إحدى خمرياته وقد دعاه الأمير

عيسى بن أبي جعفر المنصور ليقم عنده أسبوعاً في القفص في أرباض بغداد :  
ياطينا بقصور القفص مشرقةً فيها الدساكر والأنهار تطردُ  
ولقد كان شيوع اللباس الفارسي في بغداد يكاد يكون عاماً بعد سنوات  
من صدور أمر الخليفة المنصور لأصحابه بتغيير الزي الرسمي في سنة ١٥٣ .  
فكانت طوال القلانس بدل العمام لرجال الدولة وأصحاب الديوان ، والطيبالس  
السود للعلماء والمشايخ ، والأقبية لسائر الرجال ، والقراطق والمناطق للغلمان  
والجوارى .

وعلى الجملة كان لون الحضارة الفارسية ظاهراً في كل ناحية من نواحي  
الحياة العملية والعلمية ، العامة والخاصة ، حتى مواكب الخليفة ورسوم الخلافة  
على أن أبانواس قد شغل عن هذه المعالم كلها مع عظم سروره بها ، فلم  
يعرض بشيء من جيد القول لوصف القصور أو غيرها من آيات الحضارة  
وعظمة الملك في بغداد في عصرها الذهبي أيام الرشيد والبرامكة . وإنما الذي  
شغله الشغل كله واستولى على نفسه وملاك عليه مشاعره ، هو هذه الروح  
الفارسية ذات النزعة الحسية ، منبعثة في بغداد ، تجري في حلبتها منطلقة في  
أعنتها ، بكل ما عرف عن الفرس منذ قديم من حب للنبيذ ، ونزوع للهو  
والسرور ، وميل للطرب والغناء ، واستجابة لدواعي الغزل . وهي روح  
متفقة مع ديانتهم الزرادشتية القديمة التي جعلتهم يعبدون الطبيعة في مظاهرها  
الحسية دون استغراق في الغيبات كغيرها من الديانات  
ولقد كان لهذه الحضارة التي انغمس فيها الشاعر أعمق الأثر في نفسه ،

وهي كذلك معكوسةً أصدق الانعكاس في شعره . ومعلوم أن الكثرة من شعراء عصره كانوا لا يزالون ينسجون على منوال الشعراء الجاهليين ، من الوقوف على الأطلال التي تعفت فلا تكاد تبين ، والبكاء على منازل الحى الذين تحملوا بخيامهم ظاعنين ، وذَكَرَ غراب البين الذى آذن بفراق الأحبة ، والتسليم على ما خلفوا من رسوم ، وتشتم ما حولها من العرار والشيخ والقيصوم . وذلك مع كون هؤلاء الشعراء من طبقة المُجدِّثين ، وقد بعدوا عن ذلك كله في الزمان والمكان أشد البعد ، وانقطع عهدهم بالبوادي وحياة البداوة وتبدلوا منها حواضر العراق مستبحرة العمران مترفة النعيم . ولقد أبى شاعرنا العبقرى المطبوع بما كان له من رحم موصولة بالفارسية ، ونزعة ظاهرة للشعبوية ، وبما كان يتذوقه و يتملأه في هذه الحياة المترفة من اللهو واللذة ، إلا أن يكون لسان صدق ، فيكون شعره ترجانَ عصره ، ولا يعدو وصفه ما يقع تحت حسه . وزاد على ذلك أنه لم يسلك طريقه في خشية المتهيبين وتستر المهربين ، بل رفع علم الثورة نهراً ودعا دعوة المصلحين جهاراً ، فحق له أن ينزل من التاريخ الأدبي منزلةَ المجاهدين ، وأن يُعرف له في الأدب العربي فضلُ المجددين .

وهذا بعض ما كان يردده الشاعر الداعية في حملته على أصحاب المذهب القديم من الشعراء والشعاريير المحدثين ، وما كان يأخذ به من تشديد النكير عليهم وتعمد التشهير :

إِبْخَلْ عَلَى الدارِ بِتَسْلِيمِ - فَمَا لَهَا رَجْعُ تَكْلِيمِ -

والنَّعْنَ غَرَابَ الْبَيْنِ بَعْضًا لَهُ  
وَعُجٌّ إِلَى التَّرْجَسِ عَنْ عَرَفَجٍ،<sup>(١)</sup>  
وَإِغْدُ إِلَى الْحَمْرِ بِأَبَانِهَا  
ومثل ذلك قوله :

دَعِ الْأَطْلَالَ تَسْفِيهَا الْجَنُوبُ<sup>(٢)</sup>  
وَخَلُّ لِرَاكِبِ الْوَجْنَاءِ<sup>(٣)</sup> أَرْضًا  
وَلَا تَأْخُذْ عَنِ الْأَعْرَابِ لَهْوًا  
ذَرِ الْأَلْبَانَ يَشْرِبُهَا أَنَاسٌ  
بَارِضٍ نَبْتُهَا عُسْرٌ وَطَلْحٌ  
إِذَا رَابَ الْحَلِيبُ فَبُلَّ عَلَيْهِ  
فَأَطِيبُ مِنْهُ صَافِيَةٌ شَمُولٌ<sup>(٤)</sup>  
وَتَبْكِي عَهْدَ جِدَّتِهَا الْخَطُوبُ  
تَحَبُّ بِهَا النَّجِيبَةَ وَالنَّجِيبُ  
وَلَا عَيْشًا ، فَعَيْشُهُمْ جَدِيبٌ  
رَقِيقُ الْعَيْشِ عِنْدَهُمْ غَرِيبٌ  
وَأَكْثَرُ صَيْدِهَا ضَبْعٌ وَذَيْبٌ  
وَلَا تَحْرَجُ ، فَمَا فِي ذَاكَ حُوبٌ<sup>(٥)</sup>  
يَطُوفُ بِكَأْسِهَا سَاقٍ أَرِيبٌ  
إلى أن يقول :

فَأَيْنَ الْبَدْوُ مِنْ إِيْوَانِ كَسْرِي وَأَيْنَ مِنَ الْمِيَادِينِ الدَّرُوبُ  
وبعض هذه القصائد والمقطعات لا يخلو من إشارات عابثة فكلمة الى  
بعض المشهورات من الشعر القديم وخاصة المعلقة، كالإشارة الى مطلع امرئ  
القيس في معلقته « قفا نبك من ذكري حبيب ومنزل » وأمثاله - وهي إشارة

(١) العرفج والشيخ والقيصوم مما ينبت في سهول البادية ، وهي جميعاً طيبة الرائحة

(٢) الجنوب : الريح التي تهب من الجنوب (٣) الوجناء : الناقة الشديدة

(٤) الحوب : الإثم (٥) الشمول من أسماء الثمر .

أصلح ما يقال فيها أنها أشبه شيء بنكات الظراف المتحضرين من أبناء  
البلاد عندنا :

قل لمن يبكي على رسم درّس واقفاً ، ما ضرّ لو كان جلس ؟  
كما أنه في بعضها شديد الوطأة ، عارم الجراة ، مستجمع الحملة ، كقوله  
في هذه الأبيات التي نجد روح الشعوية ظاهرة فيها وكرهة العرب غالباً عليها :  
عاج الشقي على رسم يسائه . وعجت أسأل عن خمارة البلد  
يبكي على ظلل الماضين من أسد لا درّ درّك ، قل لي : « من بنو أسد ؟  
ومن تميم ، ومن قيس ، ولقهما ؟ » ليس الأعراب عند الله من أحد  
لا جف دمع الذي يبكي على حجر ولا صفا قلب من يصفو الى وتد  
كم بين ناعت خمر في دسا كرها (١) وبين بالك على نوي (٢) ومنتصد !  
ومن طريف ما يأخذه أبو نواس عليهم ويذكّره لهم في جملة معايبهم ،  
ما كان من جهلهم لهوى الغلمان وتعشق الجنس لجنسه وعدم فطنتهم للغزل  
بالمذكّر ، وذلك في قصيدة مطولة يذم فيها الأعراب ويعرض بعشقتهم ويزرى  
بعشاقهم المشهورين أمثال المرقش وعبد الله بن عجلان ، وفي ختامها يقول :

أما والله لا أشراً (٣)  
لو أن مرقشاً حي  
كان ثيابه أطله  
حلفت به ولا بطراً  
تعلق قلبه ذكراً  
ن من أزراره قمر

(١) النساكر : بيوت الأعاجم يكون فيها الشراب والملاهي (٢) النوى : الخفير حول  
الحيمة يمنع السبل ، والمنتصد مجتمع الرمل والحصى (٣) الأشر : فرط الأبراح

ومرّ يريد ديواناً الـ خراج مضمخاً عطرا  
بوجهٍ سابريٍّ (١) لو تصوّب ماؤه قطرا  
وعينٍ خالطٍ التفتيرُ في أجفانها حورا  
وقد خَطَّتْ حواضنهُ له من عنبرٍ طُرّاً  
يزيدك وجهه حسناً إذا ما زدته نظرا  
لأيقن أن حبّ المرِّ د يُلقى سهله وعرا  
ولاسيا وبعضهم إذا حبيته انتهرا

ومهما قيل من أن صاحبنا إنما كان في وصف اللذة والحرّ تجديده جميعه ،  
فإن صدقه في الترجمة عن نفسه وتصوير بعض نواحي عصره لاشك شفيعه .  
ولقد كان الذي اجتذب أبا نواس إلى بغداد وأخطرها بذهنه ، هو بعينه  
الذي اجتذب سائر أهل الفن والأدب إليها منذ ابتداء عصر المهدي . فقد  
كانت أيام أبي العباس السفاح وأبي جعفر المنصور أيام تأسيس الملك وإرساء  
لقواعده ، بالقضاء على الأمويين الأعداء ، والضرب على أيدي الطامعين من  
الأولياء ، فلما أن فرغ القوم من تمكين ملكهم وتأمينه طلبوا الراحة  
وانبسطت نفوسهم للهو . والهوى في ذلك الحين حاضرٌ قريبٌ ، شديد السحر  
والفتون ، بما دخل عليه من فنون الفرس والروم . فاذا الخليفة الذي عهدناه  
في شخص السفاح والمنصور متشدداً مقتصداً مؤثراً للجدّ منصرفاً إلى مجالس  
العلم ، قد بدأ في شخص المهدي يتفرج ويستمتع بشيء من الهو ، وينفق

(١) الثوب النابري : هو الرقيق الناعم

المال على الملهين والمنادمين ، ويسمع المغنين جميعاً ، وكانوا في أول أمره يغنونه من وراء ستارة ، فلم يدم احتجاجه هذا عن ندمائه أكثر من سنة ، ثم صار يخرج لهم ، ومن قوله في ذلك « إنما اللذة في مشاهدة السرور والدنو ممن سرّني ، فأما من وراءه فما خيرها ولذتها ؟ » . وكان أصحابه يشربون النبيذ عنده بحيث يراهم ، وهو لا يشرب لا تخرجاً بل لأنه لا يشتهي . وأما هواه فكان بالنساء ، وكان أحبّ شيء إليه الخوض مع خاصة ندمائه في الحديث عنهن وذكر الخلوة بهن ، وكان كثير التسرى والولوع باقتناء الجوارى . وكان بطبيعة حبه للنساء والغناء قد أغرم الغرام كله بالقيان ، فكان يشتريهن ويغالي بهن ، وله في الجوارى والقيان أخبارٌ وأشعار .

وسواء أضحّ نظم المهدي لهذه الأشعار أو لبعضها أم لم تصحّ له كلها ، فإنه كان يهتزّ للشعر ويجزل العطايا للشعراء . فكثير منذ عهده وفودهم على بغداد من كل صوب ، من البادية ومن مكة والحجاز ومن البصرة والكوفة وغيرها . واجتمع ببابه نفرٌ غير قليل ، نذكر منهم محمد بن المولى وعبدالله بن الخياط وبشار بن برد وأبا العتاهية وأشجع السلمي ومروان بن أبي حفصة وسلم الخاسر . ويكفي في الدلالة على ما وقع للفن من حظوة ، وما انفتح لأهله في ذلك العهد من آفاق ، وما درّ عليهم من الأرزاق ، أن نذكر ما كان عليه حال الشعراء ورجال الأدب قبله . فقد روى لنا الزاؤون أن قد اجتمع مطيع بن إياس وحماد عجرد ويحيى بن زياد يوماً في أيام المنصور العباسي ، فتذاكروا أيام بني أمية وسعتها ونضرتها وكثرة ما أفادوا فيها وحسن ملكتهم وطيب دارهم بالشام ،

وعرضوا على جهة المقابلة ما هم فيه ببغداد من القحط وشدة الحر وخشونة العيش ، وشكوا الفقر فأكثرُوا ، وقال في ذلك مطيع بن إياس :

حبذا عيشنا الذي زال عنا . حبذا ذلك ، ثم لا حبذا ذا  
زاد هذا الزمانُ عسراً وشرّاً عندنا إذ أحلّنا بغدادا  
بلدة تُمطر الترابَ على النا س كما تُمطر السماء الرذاذا  
خربت عاجلاً ، وأخرب ذوالعرب ش بأعمال أهلها كلواذا  
ولقد انقطع أبو دلّامة الشاعر الأسود الكوفي للخليفتين أبي العباس  
السفاح والمنصور ، وكانا يقدّمانه ويستطيبان مجالسته ونوادره ، فلم يبلغا في  
عظائهما ما فيه غناء ومقنع ، حتى قال أبو دلّامة حين أحدث المنصور لبس  
القلانس الطوال كلمته الشاكية المهكّمة :

وكنا نرجى من إمامٍ زيادةً . فجاد بطولٍ زاده في القلانس !  
ولما أن أنفذ الخليفة عزمه في قائد الثورة العباسية الأكبر أبي مسلم  
الخراساني فقتله ، أنشد الشاعر الخليفة في محفل من الناس قصيدةً عصماء ،  
فقال الخليفة مظهرًا في هذه المناسبة غاية التطوّل والانعام ، متعمداً إشعار القوم بما  
للخلافة من عظمةٍ وسعةٍ ومقدرةٍ : « احتكم » . فقال الشاعر : « عشرة  
آلاف درهم » ، فأمر له بها . فلما انصرف الناس وخلا به قال : « إيه ، أمّا  
والله لو تعديتها لقتلتك » .

ولقد استقلّ المهدي نفسه وهو وليّ للعهد عطاء المنصور لإبراهيم بن هرّمة  
حين أنشده قصيدته اللامية التي مدحه بها فكلّمه في ذلك : « يا أمير المؤمنين !

قد تكلف في سفره إليك نحوها . ومهما يكن من احتجاج المنصور لذلك ، فالذي لا خلاف فيه أن القصد كان من شيمته وفي طباعه .

حتى إذا كان عهد المهدي خرجت حياة الفن من الضيق إلى السعة . إذ كان الخليفة مبسوط اليد مبذول العطاء ، لا يفتأ يتسخرى على أصحابه ومنادميه ووفوده من أهل الأدب والشعر ، فيأمرهم بالخلع الفاخرة والمراكب الفارهة ، وبالجوائر المضاعفة تبلغ عشرات الألوف من الدراهم تحمل إلى منازلهم معجلة ، مما لم يسبق لغيره أن بلغ مبلغه . وفي ذلك قال مروان بن أبي حفصة الشاعر :  
بسبعين ألفاً راشني من حباته وما نالها في الناس من شاعرٍ قبلي

وقد بلغ ما أفاده الشعراء من بسطة الحال وسعة الرزق أن كان سلم الخاسر يأتي باب الخليفة على البرذون الفاره قيمته عشرة آلاف درهم بسرجٍ ولجامٍ مفضّضين ، ولباسه الخرز والوشى وما أشبه ذلك من الثياب الغالية الأثمان ، ورائحة المسك والطيب والغالية تفوح منه .

ثم إن المهدي لم يكن يقصر العطاء على مادحيه من طلاب الخير المتكسبين بالشعر ، بل كان يُسنى الجوائز ويُجزل النفقات لأهل الفن ، حباً في الفن . ومن ذلك ما يرويه حماد الراوية من أنه دخل على المهدي يوماً فقال له : « أنشدني أحسن أبياتٍ قيلت في السكر ولك عشرة آلاف درهم ، وخلعتان من كسوة الشتاء والصيف » فأشده حماد أبياتاً للأخطل . فقال له : « أحسنت » وأمرته بما شرطه ووعده به . فإذا ذكرنا أن المهدي لم يكن صاحب شرابٍ ، عرفنا مبلغ ما كان عليه من الشعور بحال الفن في ذاته .

فلا عجب إذا رأينا شاعرنا أبا نواس وقد أتمّ علمه واستوفى فنه  
وزادت على الثلاثين سنه ، يبادر إلى بغداد عروس المدائن وحضرة الخلفاء ،  
ليحظى فيها بما حظى به الشعراء . وإذا كان قد فاته عطاء المهدي ، فلا يفوته  
عطاء ولده الخليفة الأشهر هارون الرشيد . وما حلّ الفتي البصري مدينة  
بغداد ورأت عيناه عظم أبيتها وكثرة عمارتها وانصباب الدنيا فيها وما يتوافر  
بها من أسباب النعيم واللذة لمن أسعده الحال وأمكنه المال ، حتى حزّ في  
قلبه الحرمان وتمنى أن يكون له شأن غير هذا الشأن . وتلفت حواليه فإذا  
بجانب هذا الثراء الطائل والنعمة السابغة ألوف من الفقراء وذوي الحاجة  
ظاهري الخصاصة وضعف المقدرة ، وقد ضاق بهم العيش في هذه الجنة الناضرة  
الزاهرة .

عند ذلك أدركت هذا الفتي الما جنّ عزة النفس وتزّت في رأسه سورة  
الأنفة، وعصفت في صدره ثورة منكورة ، فهو لن يرضى لنفسه أهذا الهوان  
ولن يصبر على هذا الظلم والحرمان ، وهو مجمع عزمه على طلب نصيبه من الدنيا  
وحظه من اللذة ، ولو تأدّى به الأمر إلى الخروج على السلطان والتمرد  
على النظام :

سأبغى الغنى ، إما جليس خليفةٍ      يقوم سواءً ، أو نحيف<sup>(١)</sup> سبيل  
بكل فتى لا يُستطار جنانهُ      إذا نوه الزحفان<sup>(٢)</sup> باسم قتيل  
لنخمس<sup>(٣)</sup> مال الله من كل فاجرٍ      أخى بطنه للطيبات أكل

(١) قاطع طريق (٢) الجيشان زحف أحدهما إلى الآخر (٣) تأخذ خمس المال

واقـد كانت أمور الخليفة كلها في ذلك الحين إلى وزرائه البرامكة ، أمنائه على الدولة والمفوضين منه على مصالحها ، يستعملون ويعزلون من شاءوا ، ويرفعون ويخفضون من رأوا ، ويفرضون من الحقوق ويسقطون ، ويحكمون في كل شأن بما يرتضون . وهم أهلٌ لجميع ذلك ، بما كان لأبيهم من الرأي وحسن التدبير ، وما أوتوه عنه من ارتياض على حسن السياسة ، ومصانعة الحوادث والناس . وكانت دورهم بالشامية - في الموضع المعروف بسويقة خالد - مناط الآمال ومحط الرحال لطلاب المعالي والأقدار الرفيعة من ذوى الطموح والهمة ، كما كانت سوق العلم لديهم قائمةً ناقيةً ، وبضاعة الأدب عندهم رائجةً رابحةً . ومن ثمة أقبل أبو نواس من أول الأمر عليهم ، ليملا يديه من نوالهم الذى غمر شعراءهم ، وليكونوا له إلى الخليفة سبباً . فمدحهم ولكنهم لم يحققوا رجاءه كله . وكانت نغمته كلها على جعفر البرمكى ، فأقذع في هجائه لقلته عطائه دونهم ، وتعمده سوء الشهادة في شعره ، ومدافعتة إياه ما استطاع عن مجلس الرشيد . وقد اتصل أبو نواس فيمن اتصل بهم بولد المهدي وغيرهم من الهاشميين وكان يناديهم ويلازمهم . وكان ممن نادىهم القاسم بن الرشيد ، ولقى القاسمُ منه أشياء كرهها وكرهتُ له ففارقه . وكذلك اتصل الشاعر بالفضل بن الربيع ، ثم انقطع له ولآله بعد أن استوزره الخليفة على أثر نكبة البرامكة .

ولم يكن النواسى ، مع اعتماده في طلب العيش على الكبراء وأرباب الدولة ، بالذى يتحافر ويتهضم نفسه لهم ويستشعر الضعة والصغار في ناحيتهم .

فقد كان يمنعه من ذلك شعوره القوي بما للفن الذي يعالجه من شأن  
وقيمة ، ومغالاته بما يجب للفنان من قدر وحرمة . ويظهر ذلك أجلى ظهور  
فيما يروى بعضهم من أنه كان مع شاعرنا قريباً من دوز بنى نوبخت بنهر  
طابق وعنده جماعة ، فجعل يمرّ بأبي نواس القواد والكتاب وبنو هاشم  
فيسأمون عليه وهو متكئ ممدود الرجل لا يتحرك لأحد منهم . وإذا جلساؤه  
ينظرون إليه قبض رجله ووثب ، وقام إلى شيخ قد أقبل على حمار له .  
وكان الشيخ أبا العنابية الشاعر ، فاعتنق أبا نواس . ووقف أبو نواس يحادثه ،  
فلم يزل واقفاً معه يراوح بين رجله يرفع رجلاً ويضع أخرى ، حتى فرغ  
الحديث ومضى الشيخ .

ولقد حج الرشيد بعد إيقاعه بالبرامكة ومعه وزيره الفضل بن الربيع .  
وسعى في ركاب الخليفة جماعة من الشعراء ، وحسبنا أن نذكر منهم أبا نواس  
ومحمد بن منذر من المذكورين بالفسوق والمجون لنعلم أنه لم تكن بهم نية  
الحج ، ولكنها الفرصة سانحة لمديح الخليفة الحاج واحتقاب عطائه . وكان ابن  
مناذر قد هياً في مدحه قولاً أجاد تنميقة وتنوّق فيه ، وكان الرشيد يسأل  
عنه ويطلبه ، وقد سبق أن وصله مراتٍ على مداًحه صلوات سنية . فلما كان  
يوم التروية دخل الشاعر على الخليفة ، فبدره الفضل بن الربيع قبل أن  
يتكلم فقال : « يا أمير المؤمنين ، هذا شاعر البرامكة ومادحهم » . وقد كان  
البشر ظاهراً في وجه الخليفة لما دخل الشاعر ، فتنكر وعبس في وجهه .

وأضاف الفضل: « مُرَّةُ يا أمير المؤمنين أن ينشدك قوله فيهم : أتانا بنو الأملاك من آل برمكٍ »، فأمره الخليفة أن ينشد. فلما أُنِي، توعدده وأكرهه . فأنشد الشاعر القصيدة ، ثم أتبع ذلك بقوله: « كأنوا أولياءك يا أمير المؤمنين أيام مدحتهم ، وفي طاعتك ، لم يلحقهم سخطك ولم تحلل بهم نعمتك . ولم أكن في ذلك مبتدعاً ، ولا خلا أحدٌ من نظرائي من مدحهم . وكانوا قوماً قد أظننى فضلهم وأغناني رفدهم ، فأثنتُ بما أولوا » . فلم يتم قوله حتى كان الخليفة قد نادى « يا غلام الطمه على وجهه » . فطموا الشاعر حتى سدر بصره وأظلم ما كان بينه وبين أهل المجلس . ثم أمر أن اسحبوه على وجهه وهو يقول . « والله لأحرمنك ، ولا تركتُ أحداً يعطيك شيئاً في هذا العام » . فسحبوه حتى أخرج وهو لا يعي ما حوله . فإذا بشاب قد وقف عليه ثم قال : « أعزز على والله يا كبيرنا بما جرى عليك » ، ثم دفع إليه صرة وهو يقول : « تبلغ بما في هذه » . فظنها ابن مناذر دراهم ، فإذا هي دنانير تبلغ المائة وأكثر . فسأل ابن مناذر في دهشته وهو لم يبصر بعد من عشوته : « من أنت ؟ جعلنى الله فداءك » . فقال هذا الأريحي : « أنا أخوك أبو نواس ، فاستعن بهذه الدنانير ، واعذرني » . فقبلها الزميل المنكوب وقال : « وصَلِّك الله يا أخى وأحسن جزاءك » .

ونحب أن نرجع بهذه المناسبة إلى ما وقع من ابن مناذر في موسم الحج سابق ، إذ تنازع شاعرنا والحسين بن الضحاك أيهما أشعر في همزية لكل

منهما أنشدها في وصف الخمر ، فحكّم ابن منذر للحسين بأن قصيدته أفضل وأنه أشعر ، فقام أبو نواس منكسراً . فلاشك في أن القارى يرى معنا ما تنطوى عليه وقفه النواسى بعد ذلك مع زميله من غلبة روح الزميلة والترفع عن الثماتة . ومهما قيل من عطاء من الفضائل الخلقية ، فإن هذه وحدها فيه شاهدٌ صدق على وفور حظه من حساسية الإنسان الحى ، وأريحية الشاعر الذى وُلد شاعراً .

وأخيراً نفرغ للكلام عن مبلغ علاقة أبي نواس بالخليفة هارون الرشيد وفيها موضع خلاف كبير . فالذى يتقرر في الأذهان من مطالعة قصص مثل « ألف ليلة وليلة » ، وكتب مثل « إعلام الناس فيما وقع للبرامكة مع بنى العباس » هو أن الشاعر كان أشبه بمضحك للخليفة ، يتفكّه بأحاديثه ونوادر أفاعيله . والمقرر في أسفار التواريخ المعول عليها أن الذى كان مضحكاً للخليفة ومحدثاً فكها هو ابن أبي مريم المذنى ، فكان الرشيد لا يصبر عنه . وقد بلغ من خاصته بالرشيد أن بوأه منزلاً في قصره وخلطه بحرمه وبطانته ومواليه وغلمانه . وكانت له نوادر وأفاعيل غاية في الجرأة يضحك لها الرشيد ويذهب به الضحك حتى يكاد ينقطع نفسه . وهذا بعينه ما يحكى عن نوادر أبي نواس مع الخليفة هارون . وهى حكايات موضوعة أو على الأقل منسوبة إلى غير صاحبها . وقد قيل في أول اتصال لأبي نواس بالخلفاء أن الرشيد قال ذات ليلة لهرثمة بن أعين : « اطلب لى رجلاً يصلح للحديث والسمر » . فخرج هرثمة فسأل فدلّ عليه . فنادم الرشيد تلك الليلة وأجاز ما اقترحه من الشعر

بديهاً، فحسُن موقعه عند الرشيد، وأمر له بمال . وكان ذلك سبب اتصاله به .  
وكان أبو نواس يحدثه من قبيلُ بنوادر الناس ، ولكن من غير أن يفكه  
بأعراضهم ، ثم أعرض عن ذلك . فقال له الرشيد ذات يوم : « حدثنا  
يا أبا نواس » . فقال : « لا يحضرني شيء » فقال الخليفة : « بحياتي إلا  
ما قلت شيئاً » قال : « كان الكذب عملي ، واليوم هجرته يا أمير المؤمنين » .  
فضحك الرشيد وقال : « هذا أحبُّ إليَّ من الحديث » . ويرُوى لأبي نواس  
مع الرشيد نوادر لا حصر لها ، وكلامٌ كثير من المجون والخلاعة ، وما جريات  
تدل على حضور بديهته وسرعة خاطره وظرفه وخفة روحه .

وقيل إنه إنما حصل على هذه المكانة عند الرشيد بأنه كان إذا بكر  
إليه سأل خواصَّ أهل بيته عما يكون في نفسه أو يكون جرى له في ذلك  
الوقت، ثم ينشده أشعاراً لطيفة في مطابقة ذلك فيطيب بها نفساً . فمن ذلك أنه  
كان يوماً مع الرشيد في قصره، فعلم من بعض خدمه أنه دخل مقصورة جارية  
من جواريه على غفلة منها فوجدها تعتسل وقت الظهر، فلما رأتها تجلّت بشعرها  
فأعجبه ذلك منها . فلما أن دخل أبو نواس تلك الليلة الى مجلس سمر الخليفة  
أنشده :-

نَضَّتْ عَنْهَا الْقَمِيصَ لِحَبِّ مَاءٍ      فَوَرَّدَ وَجْهَهَا فَرَطُ الْحِيَاءِ  
وَقَابَلَتْ الْهَوَاءَ وَقَدْ تَعَرَّتْ      بِمَعْتَدِلِ أَرْقٍ مِنَ الْهَوَاءِ  
وَمَدَّتْ زَاخَةَ كَالْمَاءِ مِنْهَا      إِلَى مَاءِ مُعَدِّ فِي إِنْاءِ  
فَلَمَّا أَنْ قَضَتْ وَطَرًا وَهَمَّتْ      عَلَى عَجَلٍ إِلَى أَخْذِ الرَّداءِ

رأت شخصَ الرقيب على التّدانى فأسبّت الظلامَ على الضياء  
وغاب الصبحُ منها تحت ليلٍ وظلّ الماءُ يقطر فوق ماء  
فسبخان الإله وقد براها كأحسن ما يكون من النساء  
فنادى الرشيد على سبيل الاستغراب : « سيفاً ونطعاً يا غلام ! ». فقال  
الشاعر : « ولم يا أمير المؤمنين ؟ ». فقال : « أمعناً كنت ؟ » قال : « لا ،  
وإنما شئ » . خطر لي بالبال فقلته . فضحك الخليفة ثم أمر له بجائزة .

هذا وأمثاله يزعمه بعض الكتاب وقيسون عليه ويضيفون إليه .  
فيجعلون لأبي نواس عند الخليفة هارون منزلةَ النديم الذي داخله وخالطه  
وانبسط إليه وتكشّف معه ، حتى إنه أخذ المقام الأول بين الندمان وبنى  
لنفسه في نهر طابقِ الدور التي لم يَبْنِ مثلها عطاء الناس .

وعلى الضد من ذلك المترجمون الذين قيل انهم المحيطون علماً بأحوال  
أبي نواس . فهم يجزمون بأن هذه الحكايات عن أبي نواس والرشيد  
موضوعات ، وأن أبا نواس ما دخل على الرشيد قط ولا رآه ، وإنما دخل على  
محمد الأمين ، وأنه ما ملك عشرين ألف نواة ، فكيف بعشرين ألف درهم !  
وأغلبُ الظن أن الفريقين ذهباً مذهب الغلو في الوهم ، وأن القولين  
لا يسلمان من المبالغة والسرف في الجزم . ولكي نتبين وجهَ الرأى ، يحسن  
أن تتمثل حياة البلاط في ذلك العهد .

كان هارون في تفويضه أمور الدولة وتدبيرها إلى البرامكة يجد من وقته

الفراع للتملى بنعيم الأسرة ، بين زوجاته وأخصهن بالمكانة عنده زبيدة ،  
وأمهات أولاده اللاتي يزدن على العشرين ، وجواريه وهن زهاء الألفين نعرف  
منهن ضياء وهيلانة الرومية ، وأولاده وأنهم عندنا ذكراً الأمين والمأمون  
ونسائر أفراد بيته . وكذلك وجد الخليفة الفراع للجلوس الى أهل الفقه  
والأدب ، وللخولة بعد ذلك لمجلس المنادمة والشراب . وقد اشتهر بشرب النبيذ  
الذي كان يرخص أهل العراق في شربه . وفوق هذا جميعه كان يحتفل بإحياء  
أبيه ما عُرف في بلاط الملوك من حفلات السماع يشترك فيها أعلام المغنين  
والمغنيات على أنواع المعازف والملاهي .

ولا عجب فأولاد المهدي كلهم من محبي الموسيقى لما كان يجتمع في قصر  
أبيهم من القيان ، ولطول ما تردّد في مجلسه من الغناء والألحان . وكان  
هارون يقرب الشعراء ويحب المديح من شاعر فصيح ويجزل العطاء له . وكان  
مما يزيد في سروره بالشعر وطربه عليه أن يُعمل فيه ما يوافقه من اللحن  
ويُغنى له . ولكنه على كل حال كان من أجكم الناس بصرّاً بالشعر وأصحهم  
تذوقاً لجيده وأشدهم تأثراً به . فلا يمكن وهارون الرشيد بهذا الموضع أن يخفى  
عليه شأن شاعر كأبي نواس وألا يلتفت الى براعة معانيه وحلاوة لفظه .  
وإذا كان المعقول لا يكفي ولا بد من منقول ، فالدلالة حاضرة فيما رواه إسحق  
الموصلى من تقديم الرشيد لشاعر نامع ما كان من ممارسة جعفر البرمكي في أمره  
وتعصب إسحق نفسه عليه وقتئذ لشيء جرى بينهما حتى صار لا يعدّ أبانواس

البتة ولا يرى فيه خيراً . وزيد عليه هنا ما رواه كاتب الرشيد اسماعيل بن صبيح ، قال :

قال لي الرشيد : يا اسماعيل ! أبغى وصيفةً مليحةً مقدودة شكلة ، حلوة متكلمة ، ظريفة عالمة ، تسقينى ، فإن الشرب يطيب من يد مثلها « فقلت : « ياسيدى ! على الجهد » . فقال : « اجعل أمامك قول هذا العيار - يريد أبو نواس - وامثل فيها ما حدث في مثلها لك » . قلت : « ياسيدى ! فما قوله ؟ » فقال الرشيد :

« من كف ساقية ناهيك ساقية  
كانت لرب قيان ذى مغالبة  
فقد روت ووعت عنهن ، واختلفت  
حتى إذا ما غلام الشباب بها  
وجمشت بخفي اللحظ فأنجمشت  
تمت فلم ير إنسان لها شهاً  
تلك التي لو خلت من عين قيمها

في حسن قد وفي ظرف وفي أدب  
بالكشخ محترف ، بالكشخ مكتسب  
ما بينهن ومن يهوين بالكتب  
وأفعمت في تمام الجسم والقصب  
وجرت الوعد بين الصدق والكذب  
فيمين برا الله من عجم ومن عرب  
لم أقض منها ولا من حبها أربي «

وأقطع مما تقدم في تقدير الرشيد لشاعرنا ومعرفة لفضله ومغالاته بقدره ما رواه يوسف بن الداية ، قال : غاب أبو نواس عنا وعن إخوته غيبة طويلة متصلة فلم نعرف له خبراً . وجعلنا نسأل عن أمره فلم نعلم له أثراً ، حتى مضى نحو من سنة ، فظن أنه قتل . وبلغ ذلك الرشيد فقال : « والله إن صخ أنه قتل لأقتلن قاتله ولو كان محمداً ولدى . انظروا كل من كان هجاء من الناس

فاكتبوا اسمه وارفعوه إلى . فارتجت لذلك بغداد . فلما كان على رأس الحول ، إذا نحن به قد وافى . فقلنا له : « يا أبا علي ! قد غبتَ عنا هذه الغيبة فغممتنا وظننا بك الظنون » . قال : « كنت في موضع أرتضيه وأشتهيه » . فقلنا له : « ألم تسمع بافتقادنا لك ، وقول الرشيد فيك ؟ » ولم يبق أحدٌ من إخوانه إلا عدله ، وقالوا : « إن في هذا تعريضاً لنفسك للآفات » . فأنشأ يقول :

إني لفي شغلٍ عن العالمين      بالراح والريحان والياسمين  
عند غزالٍ حسنٍ وجهه      قلبي حبيسٌ بهواه رهين

ونذكر الى جانب ذلك حديث حسين بن الضحاك الشاعر - وقد كان وأبو نواس تربيين نشأ في مكانٍ واحد وتأدبا بالبصرة وكانا يحضران فيها مجالس الأدباء متصاحبين - قال : « خرج أبو نواس عن البصرة قبلي وأقام مدةً ، واتصل بي ما آل إليه أمره ، وبلغني إيثار السلطان وخاصته له ،

فخرجتُ عن البصرة الى بغداد ، ولقيتُ الناس ومدحتهم وأخذت جوائزهم وعددتُ في الشعراء ، وهذا كله في أيام الرشيد ، إلا أنني لم أصل إليه » .

وأخيراً ما نقله بعض الرواة عن مطيع - وكان خادماً للبراكمة ثم دخل بعدهم في خدمة الرشيد - قال : كنتُ واقفاً على رأس الرشيد إذ دخل أبو نواس ( وذلك بعد قفوله من رحلته الى مصر كما سيأتي ) فقال له الرشيد : أنشدني قولك في الخصيب « محضتكم يا أهل مصر نصيحتي » فأنشده إياها ، فلما بلغ قوله :

فإن يك باقى إفاك فرعون فيكم      فإن عصا موسى بكف خصيب

قال له الرشيد : ألا قلتَ : « فبأبي عصبا موسى بكفّ خصيب » ؟ فقال

الشاعر : « هذا أحسن ، ولم يقع لي » .

وأحسبنا بعد هذا الذي سمعناه من الخبر المتواتر من مختلف المصادر لا نكون متعسفين إذا لم نستبعد دخوله على الرشيد ، ونحن نرجح ذلك بعد زوال البرامكة .

ولكن الذي لا نرجحه ونستبعده كلّ الاستبعاد هو ملازمته الرشيداً ومنادمته له على الوجه الذي يقولون . فقد كان خلفاء بني العباس حتى ذلك الحين - مع تفرّج مَنْ تفرّج منهم ببعض اللعب واللهو - محافظين على وقار الملك . كما أن لهوهم لم يكن كله لهوً شرفاً . فقد كان المهدي مولعاً بالصيد واللعب بالدبوق والصوالة . وكذلك كان الرشيد يتصيد ويلعب بالصولجان في الميدان ، إلى جانب لعبه بالكرة والطبّاط ورميّه في البرجاس بالنشاب مع احتفاله بشهود السباق وكلفه بالشطرنج . ثم انهم حتى في خلواتهم للشرب واللهو كانوا كارهين للتبذّل وطرح الاحتشام . فالمهدي كان شديد الحب للنساء ، ومع هذا كان ينهى بشاراً عن الفحش في الغزل ، وإذا حنّ إلى سماع شيء منه قال لبشار : « قل في الحب شعراً ولا تُطبل ولا تُسمّ أحداً » وكذلك لما اتصل بالرشيد قول أبي العتاهية في عتبة متغزلاً :

ألا إن ظبياً للخليفة صادني ومالي على ظبي الخليفة من عدوّي

غضب الرشيد وقال « أسخر منا ، فعبث ! » . وأمر بجبسه وطال في الحبس مكثه . وكان المهدي يسمح لمنادميه في مجلس السماع أن يشربوا

وإن كان لا يشرب ، ولكنه حين رأى إبراهيم الموصلي يشرب في منازل الناس ، ويتبدل معهم ويجيئه منتشياً ، أمر به فضرب وحُبس . والرشيد على حبه للتنعم واستمتاعه بألوان الترف كان يصلى في كل يوم مائة ركعة ، ويكثر من الخروج للحجّ ومعه مائة من الفقهاء ، وإذا لم يحجّ أحجّ ثلاثمائة رجل بالنفقة السابقة والكسوة الظاهرة . وكان يكره الخوض والمرء في الدين ، وتُسرع دمعته حتى تخضلّ لحيته لوعظ الواعظين .

وما دام أمر الخلفاء كذلك ، فليس يصح في العقل اتخاذهم مثل أبي نواس جليساً ملازماً ، وإنما جاز لأبي نواس أن يكون ذلك النديم حين وليّ الخلافة محمد الأمين .

ولما كان الرشيد قد أصبح بعد نكبة البرامكة صاحب الأمر كله والمتصرف برأيه دون سواه ، والمطلق اليد في خزائن الدولة والمتحكم في رقاب الرعية ، فقد أقبل أبو نواس يتحين المناسبات الرسمية ليمدحه فيمن كان يمدحه من الشعراء المنقطعين لذلك . وهو وإن لم يكن في طبقتهم في هذا الباب قد كانت له مع ذلك في المديح أبياتٌ يعدونها من غرر الشعر وفرائده .

وقد نظم الشاعر في انتصارات جيوش الخليفة في آسيا الصغرى على جيوش الروم - حين قطع صاحبهم نقفور الجزية - قصيدةً في مدح الرشيد يقول فيها :

إني حَلَفْتُ عليك جهدَ أليّةٍ<sup>(١)</sup> قسماً بكلِّ مقصّرٍ ومحلّقٍ

لقد اتقيت اللهَ حقَّ تقاته      وجهدتَ نفسك فوق جهد المتقي  
وأخفتَ أهلَ الشرك حتى إنه      لتخافك النُطفُ التي لم تُخلق  
وصناعةُ الشعراءِ إن أنفقتَها<sup>(١)</sup>      نفقتَ، وإن أكسدتها لم تنفقُ

وفي سنة ١٨٩ تمّ للرشيدي أخذُ البيعة بولاية العهد لأولاده الثلاثة الأمين  
فالمؤمن فالمؤمن ، واحداً بعد الآخر . فقال شاعرنا في ذلك :

تبارك من ساس الأمور بعلمه      وفضل هارونا على الخلفاء  
نزّالٌ بخير ما انطوينا على التقى      وما ساس دنيانا أبو الأمناء  
ولما أن شخص هارون الرشيد إلى بلاد الروم لعشرٍ بقين من رجب عام  
١٩٠ واتخذ قلنسوةً يلبسها مكتوباً عليها (غاز - حاج) تبارى الشعراء في  
ذكر ذلك، فقال أبو المعالي الكلابي :

فمن يطلب لقاءك أو يُردّه      فبالحرمين أو أقصى الثغور  
ففي أرض العدو على طيرٍ<sup>(٢)</sup>      وفي أرض الترفه فوق كور<sup>(٣)</sup>

وكان شاعرنا أبو نواس ممن قالوا في ذلك :

هارون ألفنا ائتلافَ مودةٍ      ماتت لها الأحقادُ والأضغانُ  
في كل عامٍ غزوةٌ ووفادةٌ      تنبتُ بين نواها الأقران<sup>(٤)</sup>  
حجٌّ وغزوةٌ مات بينهما الكرى      باليعمات شعارها الوخدان<sup>(٥)</sup>

(١) روجتها (٢) الفرس الجواد الطويل القوائم (٣) رحل البعير  
(٤) تتقطع حبال المطايا (٥) اليعمات النوق المطبوعة على العمل السريعة السير .

والظاهر أن الشاعر لم يكن موفقاً في هذا الميدان ، وأنه كان لغيره فيه قصبُ الرهات ، سواء أكان السبب قصور شعره أم غير ذلك من ماجريات أمره . فعزم على الخروج إلى مصر .

وكان الرشيد بعد نكبة البرامكة قد أراد استعمال قومٍ لم يعملوا معهم ، فقلد فيمن قلدهم من العمال على الأمصار الحسين بن جميل على ولاية مصر وذلك في ١٩ شعبان سنة ١٩٠ ، وجعل على خراجها أبا النصر الخصيب بن عبد الحميد العجمي الذي تنسب إليه منية بني خصيب المعروفة اليوم في صعيد مصر بالمنيا . وكان الخصيب هذا رئيساً في أراضيه ، فانتقل إلى بغداد وصار كاتب مبروئيه الرازي ، ثم انتقل إلى إمارة الخراج على مصر كما روينا . والذي عليه الرواة أن الخصيب كتب إلى أبي نواس يستزيره وهو من خواصه فخرج إليه . وخرج في وقت خروجه جماعة من الشعراء لامتداح الخصيب ، ولم يعرفوا خبر خروج أبي نواس ، حتى اجتمعوا بالرتقة . فقال بعضهم لبعض : « هذا أبو نواس يمضي إلى الخصيب ، ولا فضل فيه لأحدٍ معه ، فارجعوا عن قُرب » . وبلغ أبا نواس ما عملوا عليه من الرجوع ، فصار إليهم مسلماً ، ثم قال لهم : « قد بلغني ما عزمتم عليه من الرجوع ، فلا تفعلوا وامضوا حتى نصطحب ، فإني والله لا أبدأ إلا بكم » . فشكروه ، وسكنوا إلى قوله ، ومنضوا حتى قدموا مصر . واتصل خبرُ أبي نواس بالخصيب ، فجلس له جلوساً عاماً في مجلس جليل . ودخل أبو نواس إليه ، والشعراء في دهليزه ، فسلم عليه وقال :

يا أيها الملك المؤمنُ قد استزرت عصابة فأقبلوا  
وعصابةً لم تستزرم طفلاً رجوك في تطفيلهم وأملوا  
وللرجاء حرمةً لا تجهل فافعل كما كنت قديماً تفعل

فاستحسن الخصبُ قوله وكلٌّ من حضره ، وقال له الخصبُ : « من شريكك ؟ » فعرفته أبو نواس خبر الشعراء ، فقال : « اجلس فقدّر لهم صلاتهم ، على حسب مقاديرهم في نفسك » . فقدّر أبو نواس لهم صلاتهم ، وعرضها عليه ، فوقع بإطلاقها ، فأطلقت من وقتها . وقال له : « اخرج ففرّقها عليهم ، واصرفهم » ففعل ذلك ، وعاد إليه .

واحتفل الأمير بالشاعر ، وأكرمه غاية الإكرام وقرّبه ورفع موضعه . ولما استقرّ به المجلس استنشدته وكان عنده جماعة من الشعراء . فقال أبو نواس : « هنا جماعة من الشعراء هم أقدم مني وأسن . فأذن لهم في الإنشاد ، فإن كان شعري نظير أشعارهم أنشدت وإلا أمسكت » . فاستنشدهم الأمير فأنشدوا المدائح فيه . فتبسم أبو نواس وقد رأى أشعارهم غير مقاربة لشعره . ثم قال : أنشدك أيها الأمير قصيدة هي بمنزلة عصا موسى تتلقف ما يأفكون » . فقال : « هات » . فأنشده قصيدة طويلة من بلاغته مطلعها :

أجارة بيتينا أبوك غيورٌ وميسور ما يرجي لديك عسيرُ  
وفي القصيدة عدا المديح المعتاد وصفٌ للقافلة السيارة ورحلته معها من

عراق عابراً البيداء إلى البلاد الشامية قاصداً مصر . وقد أتى الشاعرُ في هذه القصيدة على المنازل التي مرَّ بها والبلاد التي حلَّ فيها .  
ولقد اهتزَّ الخصب لما جاء على لسان الشاعر من المديح وأمر له بالجوائز السنية .

ويقال ان المصريين شغبوا في هذه الأثناء على الخصب لزيادة الأسعار واشتداد الغلاء . وماج الناس في المسجد الجامع وقد تواعدوا أن يجتمعوا فيه . وبلغ ذلك الخصب نفسه وهو على شربه وعنده أبو نواس . فقال الشاعر :  
« دعني أيها الأمير أكلهم » . فقال الأمير : « ذاك إليك » . فخرج أبو نواس حتى وافى المسجد الجامع ، فصعد على المنبر ، واعتمد على عضادتيه ، وحول وجهه للناس وعليه ثياب مشمرات ، فقال :

محضتكم يا أهل مصر نصيحتي      ألا فخذوا من ناصح بنصيب  
ولا تثبوا وثب الشفأة (١) فتحملاوا      على حدّ حامى الظهر غير ركوب (٢)  
فإن يك باق إفاكُ فرعونَ فيكمُ      فإن عصا موسى بكف خصب  
رماكم أمير المؤمنين بحيةٍ      أكلٍ لحيات البلاد شروب  
فلما سمعها الجمعُ تفرّقوا فلم يبق منهم أحد .

ونظم الشاعر أكثر من قصيدة في الخصب ، نختمها بقوله :

أنت الخصب وهذه مصرُ      فتدققا فكلا كما بحرُ  
النيل ينعش ماؤه مصرأ      ونداك ينعش أهله الغمرُ

وقد أصدر الخليفة في ٧ رجب سنة ١٩١١ أمره لواليه على مصر الحسين بن جميل بأن يتولى كذلك أمر الخراج. فانتهت بذلك إمارة الخصب. وعليه تكون إمارة الخصب على خراج مصر من ١٩ شعبان سنة ١٩٠٠ إلى ٧ رجب سنة ١٩١١ وتكون السنة التي قيل ان أبو نواس قضاها في ربوع مصر واقعة في هذه المدة. ومدح أبو نواس في مصر آل حديج وغيرهم ، فمن حرموه عاد فذمهم على عادة الشعراء . وكان يستحب من مصر جوها السجسج ويقول غابطاً لأهلها « إن دنياكم مستوية لا حر ولا برد عليكم . وإنكم تتصرفون في حوائجكم سائر نهاركم في أوله وآخره وفي وسطه ، وليس هذا لأحد غيركم » ، إلا أنه كان ممتليء القلب رعباً من النيل لما سمعه من مزعجات القصص والأخبار عن تماسيحه . ولا نشك في أنه قضى المدة التي قضاها في مصر لم تنحدر به مركب فيه ، ولعله لم يعرف حتى النزهة على شواطئه وحوافيه . وكيف لا يكون ذلك كذلك ، والشاعر يشهد على نفسه في بعض شعره بأنه من خوف التماسيح لم ير النيل رأى العين اللهم إلا في القلال والكيزان :  
أظهرت للنيل هجراناً ومقليةً إذ قيل لي إنما التماسيح في النيل  
فمن رأى النيل رأى العين من كذبٍ فما أرى النيل إلا في البواقي  
كما أنه كان يكره شراب مصر ولا يمكنه الخمر بها إلا ما كان يُحمل إلى الخصب . وقد سقط من الشعر الذي قاله بمصر والشام كثير . ويحكى أنه لما انصرف من مصر مرّ بمحص فرأى كثرة خمّاريها ، وجودة الشراب بها ،

وترك الشاربين لها كتمان شربها ، فأعجبه ذلك وكان قد طال بمصر حرمانه  
منه ، فأقام بها مدة معتبلاً ومصطبحاً . ثم مرّ بعانة فسمع اصطخاب الماء في  
الجداول ، فأقام فيها ثلاثاً يشرب من شرابها ويتغنى بقول الأخطل :

من خمر « عانة » ينصاع الفؤاد لها      بجدولٍ صخبِ الآذَى موّارٍ  
فلما دخل إلى الأنبار تسرع إلى بغداد وقال : « ما قضيتُ حقَّ قطربلٍ  
إن لم أبطؤ بها » . فعدل إليها ، فأقام ثلاثاً حتى أتلف فضلةً كانت معه من  
نفقته وباع رداءً مُعلماً من أردية مصر . وقال عند انصرافه من قطربل :

طربتُ إلى قطربلٍ فأتيتها      بألفٍ من البيض الصراح وعينِ  
ثمانين ديناراً جيداً أعدّها      فأتلفتها حتى شربتُ بدينِ  
رهنتُ قميصاً سابرياً وجبّةً      وبعثُ إزاراً معلّم الطرفينِ  
وقد كنتُ في قطربلٍ إذ أتيتها      أرى أنى من أيسر الثقلينِ  
فروّحتُ عنها معسراً غير موسرٍ      أقرطس في الإفلاس من ممتينِ  
يقول لى الخنبار عند وداعه      وقد ألبستنى الراحُ خُفّ حنينِ  
« الأرحُ بزَيْنِ يومَ رُحّتَ مودّعاً »      وقد رُحّتُ منه يومَ رُحّتُ بشينِ

وعلى هذه الحال من الشوق إلى حياة بغداد ، عاد شاعرنا إليها ليستأنف  
فيها باطله ولهوه بعد طول حنينه في مصر إليها :

إذا ذُكرتُ بغدادُ لى فكأنما      تحرك في قلبي شباةُ سنانِ  
وفي هذه الحقبة كان الخليفة هارون الرشيد يزيد مع السنّ والعلّة شدةً

وترمَّتاً . وفوق ذلك فقد ذهب البرامكة ولم يغن غداَتهم غناءهم ولم يقوموا بمقامهم ، فكان هو الناهض وحجده بأعباء الحكم وضبط الأمور وتوجيه الجيوش لحرب الروم وقع الفتن في الأطراف . فكان من ذلك ما لوحظ على الرشيد من السرعة إلى الغضب وإنزال النعمة .

وقد أصاب الشاعر السكير الماجن من ذلك الكثير . فخبسه الخليفة في المطبَّق أكثر من مرةٍ لشربه الخمر مجاهراً بها متهتكاً فيها . فكان يقضى وقته يعبت مع من يكون معه في الحبس ويلعبه الشطرنج والرد . وأتهم أبو نواس كذلك أكثر من مرةٍ بالزندقة . من ذلك أنه كان قد انصرف من بعض المواخير سكران ، فمر بمسجد قد حضرت فيه الصلاة . فدخل ، فقام في الصف الأول ، فقرأ الإمام الآية « قل يا أيها الكافرون » ، فقال أبو نواس من خلفه « لبيك » . فلما قضيت الصلاة اندفع إليه المصلون ولببوه . وانتهى أمره إلى أن دُفع به إلى حمدويه صاحب الزنادقة . ولولا علم حمدويه أنه ماجن وليس هو بحيث يُظنُّ ، لكان قد قضى عليه .

وكان لبعض الأمراء وأصحاب الكلمة تراتٌ عند أبي نواس لهجائه لهم . ومن هؤلاء سليمان بن جعفر بن أبي جعفر المنصور . وكان أبو نواس قد هجاه وحاف عليه ، ولم يعدل بعدها إلى مدحه ولم يرجع عن مكروهه . فاتفق أن جلس الرشيد مجلساً ، وأفاض من حضره في ذكر المطبوعين من الشعراء المحدثين ، إلى أن اتصل بالذكر بأبي نواس ، فغمز عليه سليمان بن أبي جعفر ،

فقال : « يا أمير المؤمنين ! كافرٌ بالله ، لا يرعوى من سكره ولا يأنف من فاحشة » . وقد كان نعى إلى الرشيد من خبره شيء . فقال : « يا عم ! هل تأثرٌ عنه من ذلك شيئاً ؟ » . قال : « قوله يا أمير المؤمنين :

يا ناظراً في الدين ما الأمرُ ؟ لا قدرٌ صحح ولا جبرٌ !  
ما صحح عندي من جميع الذي يُذكر إلا الموت والقبرُ  
ثم قوله أيضاً :

باح لساني بمضمر السرِّ      وذاك أنى أقول بالدهرِ  
وليس بعد الممات مرتجعٌ      وإنما الموت بيضة العُقرِ

فاستشاط الرشيد غضباً وطار شققاً وقال : « على بابن الفاعلة » . فقال رجل من جلساء الرشيد : « إن أذن لي أمير المؤمنين أنشدته من قول هذا الفاسق ما هو أشنع وأفظع مما أنشده أبو أيوب » . قال : « هات ! » قال : « قوله في غلام نصراني :

تمرُّ ، فاستحييك . أن أتكلما      ويثنيك زهو الحسن عن أن تسلماً  
ويهتزُّ في ثوبيك كلَّ عشية      قضيبٌ من الريحان شبَّ منعماً  
بحسبك أن الجسم قد شفه الضنى      وأن جفوني فيك قد ذرفت دما  
أليس عظيماً عند كل موحدٍ      غزالٌ مسيحيٌّ يعذب مسلماً  
فلولا دخولُ النار بعد بصيرةٍ      عبتُ مكان الله عيسى بن مريما

فازداد حنق الرشيد عليه فقال : « يا أمير المؤمنين ! وأشنع من ذلك » قال : « هات ! » فأنشده قوله في غلام نصراني آخر :

وملحة بالعدل ذات نصيحةٍ      ترجو إنبابة ذى مجونٍ مارقٍ  
بكرت تبصّرني الرشاد وهمتي      غير الرشاد ومذهبي وخلاتي  
فأجبتها: « كفى ملامك إنني      مختارُ دينِ أقسةٍ وجثالثي  
والله لو لا أننى متخوفٌ      أن أبتلى.....

وقطع الإنشاد. فقال له الرشيد: « بماذا ويلك ! ». فاستعفاه، فقال  
« ويلك ! بماذا » فقال :

..... بإمام جورٍ فاسقٍ

فضجّ المجلسُ بأهله ، وأنكر الرشيد نفسه ، ثم قال : « امض » . فقال :

لَتَبِعْتُهُ فِي دِينِهِ وَدَخَلْتُهُ

ببصيرةٍ منى دخولِ الوامقِ

إني لأعلم أن ربي لم يكن ليخصمهم إلا بدينٍ صادقٍ

فقال الرشيد للفضل : « برئتُ من المنصور إن لم يبت هذا الكلب في

المطبخ لتُنكرني قولاً وفعلاً » . وكان أبو نواس نعى إليه الخبر فساخ في

الأرض . فوجه الفضل من ساعته من أخذ بأفواه السكك ، فوجد ، فأودع

المطبخ . ثم أعانه الفضل بن الربيع بعدها إلى أن أُطلق ، فقال في ذلك :

الله فرج لي برأى الفضل من حلق الكبولِ

وأقالني غنتَ العشا ر وقد أيست من المُقبلِ

وكان خاتمة المطاف ما أبلغ الى الرشيد من قوله يفتخر بقحطان التي يدعيها،

ويسب عدنان ويهجوها في قصيدة طويلة يقول فيها :

فانحرف بقحطان غير مكتشِبٍ فحاتمُ الجودِ من مناقبها  
ولا ترى فارساً كفارسها إذ زلت الهامُ عن مناقبها  
واهجُ نزاراً وأفرِ جادتها وهتكِ الستر عن مثالبها  
وكانت العصبية لا تفتأ تهيج بين اليمانية والنزارية كما يعلم قراء التاريخ  
العربي . وكانت في ذلك العهد تهيج بالشام خاصة ، وقد بلغت في بعض  
أطوارها هيجاً تشيب لهوله الولدان ، وقتل فيها خلق كثير . وكان الخليفة  
يلاقى كل مرة عنتاً في إخمادها ، يوجه لذلك القواد والعسكر الكثيف ،  
وكانت مع ذلك لا تسكن حتى تعود . فلما بلغت إلى سمع الخليفة قصيدة  
شاعرنا اشتد به الغضب . ولم يشفع للشاعر استثناءؤه للنبي محمد دون سائر  
قريش « ذات المتاجر » في هجائه للقبائل العدنانية ، ولا تنبيهه إلى أن شطر  
الخليفة يمان من ناحية جدته :

أحبُّ قريشاً لحبِّ «أحمدها» واعرف لها الجزل من مواهبها  
إن قريشاً إذا هي . انتسبتُ كان لها الشطر من مناسبها  
فأم مهديِّ هاشم - أم موسى الخيبر - منا ، فانخر وسام بها  
إن فاخرتنا فلا افتخار لها إلا التجارات من محاسبها  
وإنها - إن ذكرت مكرمةً - جاءت تجارتها بغالبها  
وإذا كانت هذه الشفاعات لم تنفع الشاعر عند الخليفة ، فذلك أن الأمر  
كان يعدو شخص الخليفة الهاشمي القرشي إلى تعريض البلاد للفتن الداخلية .

فأمر الخليفةُ بالشاعر المنكود فألقى في غيابة المطبق انتظاراً للموت فبقى فيه دهرًا . فجعل يتشفع بالوزير الفضل بن الربيع وهو لا يستطيع له شيئًا . فقال متحسرًا لما صار إليه ، متندماً لما تورط فيه ، متسخطاً على الفضل :

على مرّكبي منى السلامُ ، وبزنتي      وغدواتٍ لهوٍ قد فقدتَ مكاني  
فلو أن خدّتيّ القريبين أبصرا      خضوعيّ للسجّات ما عرفاني  
ولو أبصراني والقيود تقودني      ومشي إلى البوّاب بالنجشان (١)  
لحى الله من أمسى يرشح نصره      بفكّ إيسارٍ منه عند يماني  
ومالى وقحطاناً وبثّ مديحها      ونصبي لهاً نفسى بكل مكان  
فإن أمسى لا تخشى لسيفي فتكةً      فلا تأمن يا (فضل) فتكّ لساني  
وإني لأرجو أن أراك كجعفر (٢)      ونصفاك فوق الجسر يقتسمان

وكتب إلى الحسين الخادم مولى هارون متزلفاً يرجو وساطته ، ويعلم الله توبته وإنابته :

تلقيّ المراتب للحسين ذليلاً      وإذا سواه يرومها تتصعبُ  
إنّ الإمام إذا اجتباك لسره      لمسدّدٍ فيما أتى ومصوّبُ  
لم يبأل مثلك عفةً فيما بلا      وحزامةً في كل أمرٍ يحزبُ  
وخلطت خوفك للإله بخوفه      فعلمت ما تأتي وما تتجنبُ

(١) النجش : الاسراع ، والمبالغة في الثمن بقصد التبرير وإيقاع الغير

(٢) هو جعفر البرمكي الوزير وقد قتله الرشيد وصلبه ببغداد فجعل نصف جثته على الجسر

الأعلى ونصفها على الجسر الأسفل ونصب رأسه على الجسر الأوسط

أبلغ هُدَيْتَ - إلى الإمام رسالةً عني بأني بعدها أستعيب  
وشهادتي أني حليفُ عبادةٍ فابلوا على الأيام ذاك وجربوا  
وكتب إلى عبيد الخادم مولى الملكة زبيدة:  
جَعَلْتُ عُبَيْدًا دُونَ مَا أَنَا خَائِفٌ وَصِيْرَتُهُ بَيْنِي وَبَيْنَ يَدِ الدَّهْرِ  
أشار إليه الناسُ من كلِّ جانبٍ وقالوا أبو عمرو لها وأبو عمرو  
ثم التجأ إلى الأمير الحسين بن عيسى بن أبي جعفر المنصور مستغيثًا  
مستصرخًا :

رَفَعَ الصَّوْتَ فَنَادَى يَا أَبَا عَيْسَى الْجَوَادَا  
كُنْ عَمَادًا - يَا ابْنَ مَنْ كَانَتْ غِيَاثًا وَعَمَادَا  
وَتَدَارِكُ جَسَدًا قَدْ مَاتَ أَوْ قَدْ قِيلَ كَادَا  
قُلْ لَهُ إِنْ قَالَ « هَلْ تَابَا » ب؟ « نَعَمْ تَابَ، وَزَادَا »  
وَاضْمَنْ التَّوْبَةَ عَمَّنْ كَلَّمَا أَطْرَاكَ عَادَا  
ولما أعيته الحيلة ولم تنفع الشفاعة ، توجه إلى الخليفة نفسه ضارعًا  
مستغفرًا ذا كرامٍ محامده معددًا ما أثره :

بِعَفْوِكَ - لَا بِجُودِكَ - عُدْتُ لَا بِلِ  
فَلَا يَتَعَذَّرُنَّ عَلَيَّ عَفْوٌ  
فَإِنِّي لَمْ أَخْنِكْ بِظَهْرِ غَيْبٍ  
بِرَاكِ اللَّهِ لِلْإِسْلَامِ عِزًّا  
لَقَدْ أَرَهَبْتَ أَهْلَ الشَّرْكِ حَتَّى  
بِفَضْلِكَ يَا أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ  
وَسِعَتْ بِهِ جَمِيعَ الْعَالَمِينَ  
وَلَا حَدَّثْتُ نَفْسِي أَنَّ أَخُونَا  
وَحَصْنًا دُونَ بِيضْتِهِ حَصِينَا  
تَرَكْتَهُمْ وَمَا يَتَذَمَّرُونَا

تزورهم بنفسك كل عامٍ زيارةً واصل للقاطعيننا  
ولو شئتَ اكتفيت إلى نعيمٍ وقاسى الأمرَ دونك آخروننا  
فشنعَ حسنَ وجهك في أسيرٍ يدين بحبك الرحمن ديننا  
إذا ما الهولُ حلَّ بدار قومٍ فليس لجار مثلك أن يهونا  
ولكن الخليفة كان في شغل عنه بتوجيه قواده هنا وهناك لمداركة  
الفتوق قبل اتساعها في أطراف ملكه . ولقد شخص بنفسه مع اشتداد العلة  
عليه لحرب رافع بن ليث الثائر في خراسان مصطحباً معه المأمون الذي جعلت  
له الولاية عليها ، وقد استخلف ابنه القاسم الملقب بالمؤمن على الرقة وكان  
الخليفة قد اتخذها مقراً له ونقل إليها خزائنه في ذلك الحين ، واستخلف على  
بغداد عاصمة الخلافة وليَّ عهده والخليفة من بعده محمداً الأمين .

# نديم الأمين

كان محمد الأمين ببغداد حين ورد من صاحب البريد خبر وفاة والده العظيم هارون الرشيد في غرة جمادى الأولى سنة ١٩٣ ، في قرية بالقرب من طوس ، بعلة في حشاه كانت لا تزال تعاوده وهو يغالبها ويكتمها الناس كلهم . وتسلم الخليفة الجديد الخاتم والقضيب والبردة ، وتحول من قصر الخلد وكان نازلاً فيه الى قصر الخلافة بالمدينة وهو قصر أبي جعفر . وأمر الناس بالحضور يوم الجمعة ، فحضروا فضلى بهم وألقى الخطبة التقليدية ، وتقبل البيعة من جلة أهل بيته والقواد ورجال الدولة . وتقبل عبد الله المأمون البيعة من الخراسانيين لأخيه ، ثم لنفسه من بعده ، وأقام على ما كان يتولى من عمل خراسان ، وتواترت كتبه الى الخليفة بالتعظيم والهدايا إليه من طرف تلك البلاد من المتاع والآنية والمسك والدواب والسلاح . وشخصت السيدة زبيدة من الرقة بجميع ما كان معها هنالك من الخزائن وغيرها الى بغداد ، فتلقها ابنها الأمين خارج المدينة في جميع من كان بالحضرة من الوجوه ، وأنزلها معه في قصر الخلافة .

وكان الوزير الفضل بن الربيع مع الرشيد بطوس ، فلما مات الخليفة جمع الفضلُ جميع ما في المعسكر مما أوصى به الخليفةُ الراحل للمأمون ، وانصرف بذلك كله الى بغداد وهو يقول : « لا أدع مَلِكًا حاضرًا لآخر لا يُدْرِي ما يكون من أمره » . وأغرى القواد والجند بالرحيل واللاحاق بالأمين ، ففعل أكثرهم محبةً منهم باللجوق بأهلهم ومنازلهم . فلما وافى الفضل بغداد عرف له الخليفةُ الجديد ما قدمه فاستوزره .

وكان الأمين قد تلقى في صباه على الكسائي وعلي بن المبارك الأحمري وغيرهما من المؤدبين ما يتلقاه أبناء الخلفاء من فنون العلم والأدب وقتئذ ، فأقرأوه القرآن ، وعرفوه الآثار ، وعلموه السنن ، ورَوَّوه الأشعار ، وبصروه بمواقع الكلم وبدئه ، مع ما يجب على الخليفة العباسي من تعظيم مشايخ بني هاشم اذا دخلوا عليه ، ورفع مجالس القواد إذا حضروا مجلسه ، وما الى ذلك بما يكون فيه صلاح أمره واستيثاق ملكه ، ومع ذلك كانت طبيعة اللهو هي الغالبة عليه ، وظل على ما فيه من الانقياد لهواه والتصرف مع طويته ، والتبذير لما حوته يده ، ومشاركته النساء والإماء في رأيه . ولولا منزلة أمه زبيدة من هارون ، وميل بني هاشم بأهوائهم إليه تعصباً لوكد الهاشمية على ولد الفارسية ، لما جعل هارون ولاية العهد له قبل أخيه الأكبر المأمون .

فلما أن أفضت إليه الخلافة ، أصبح صبيحة السبت - أي بعد البيعة له في بغداد بيوم ، فأمر ببناء ميدانٍ حول قصر الخلافة في المدينة للصوالة والعب . ولما أن جاءت الكتب من خراسان وسائر الأطراف بالبيعة ، واستتببت له

الأمر واطمان باله من ناحية الملك ، وجه في طلب الملتهين وضمهم إليه وأجرى لهم الأرزاق ، وطلب الخصيان وأبتاعهم وغالى بهم ، ورفض النساء الحرائر والإماء حتى رمى بهن ، وصير الخصيان لخلوته في ليله ونهاره وقوام طعامه وشرابه وأمره ونهيه ، وفرض لهم فرضاً سماًهم الجرادية ، وفرضاً من الحبشان سماًهم الغرابية ، وكان يقضى أوقات لهوه وفراغه مع هؤلاء الخصيان في المنادمة والشرب . وفي ذلك قال بعض الشعراء :

لهم من عمره شطرٌ وشطرٌ يعاقر فيه شرب الخندريس  
وما للغائيات لديه حظٌ سوى التقطيب بالوجه العبوس  
إذا كان الرئيس كذا سقيماً فكيف صلاحنا بعد الرئيس  
فلو علم المقيم بدار طوس<sup>(١)</sup> لعزَّ على المقيم بدار طوس

و بديهي ، وقد جلس الخليفة هذا المجلس للشراب بين الندمان والخصيان أن يجرى في الجماعة ذكرُ المجون والمجان ، وأن تروى - فيما هم بسبيله - طرائف النوادر والأخبار ، وننشد لطائف الأشعار . ولا نزاع في أن النواصي كان أشهر خلعاء ذلك الزمان وأجراهم شعراً على كل لسان ، فلا جرم يتردد في المجلس اسمه ويستعاد شعره . والخليفة لأشك عندئذ إذا كرهه ، فقد دخل عليه مع الكسائي في بعض درسه ، وكان يغشى حضرته ويشترك في منادمته أيام إمارته . فلما أت سأل الخليفة عنه ، قيل له : « محبوس لما نزل في المطبق » فقال : « ليس عليه بأس » . ومضى إسحق بن فراسة وسعيد بن

(١) يرند الرشيد لدفته بطوس

جابر أخو الخليفة من الرضاة إلى أبي نواس في محبسه فقالا له يُطمئنانه :  
« إن أمير المؤمنين ذكرك البارحة فقال ليس عليه بأس ». فنظم الشاعرُ أبياتاً  
بعث بها إليه يصف حاله ويمدحه ويستعطفه :

أرقتُ وطار عن عيني النعاسُ      ونام السامرون ولم يؤاسوا  
أمينَ الله ، قد مُلكتَ مُلكاً      عليك من التقى فيه لباس  
ووجهك يستهلّ ندَى فيحيا      به في كل ناحية أناس  
كأن الخلق في تمثالِ روحٍ      له جسد ، وأنت عليه راسُ  
أمينَ الله ، إن السجنَ بأسٌ      وقد أرسلتَ ليس عليك باس  
فلما أنشدت الأبيات للخليفة في مجلسه بالعشيّة قال : « صدق ، عليّ به »  
فجىء به في الليل فكسرت قيوده وأُخرج حتى أدخل عليه ، فأنشأ يقول وهو  
مائل بين يديه :

مرحباً مرحباً بخير إمامٍ      صيغَ من جوهر الخلافة بحتنا  
يا أمينُ الإله يكأوك إلا      ه مقياً وطاعناً أين سرتنا  
إنما الأرض كلها لك دارٌ      فلك الله صاحبٌ حيث كنتنا  
وسرّ الأمين به وخلع عليه وجعله من ندمائه .

ومما يجب ذكره لأبي نواس شاهداً على طيب نفسه ، وسلامة صدره  
من الضغن الذي يُعمى ويُصم ، وارتفاعه بحكمه عن الهوى ، أنه لم يغيّر رأيه  
في الرشيد بعد موته ، ولم يخلُ من حزنٍ عليه مع حبسه إياه ، ولم يجحد إحساناً

أسلفه إليه وأسداه . فنراه لا ينسى وهو يهني الخليفة الجديد ويظهر سروره به  
أن يبكي الخليفة الراحل ويذرى عليه دمه :

جَرَّتْ جوارٍ بالسعد والنجسِ      فنحن في ماتم وفي عرسِ  
القلب يبكي ، والسنُّ ضاحكة ،      فنحن في وحشة وفي أنسِ  
يضحكنا القائمُ الأمينُ ،      ويُبْكينا وفاةُ الإمامِ بالأمسِ  
بدران ، بدر ضحى ببغداد بال      بخلد ، وبدر بطوس في رمسِ  
وقد عاد ثانية إلى رثائه في قوله :

الناس ما بين مسرورٍ ومحزونٍ      وذى سقامٍ بكفِّ الموتِ مرهونِ  
من ذا يُسرُّ بدنياه وبهجتها      بعد الخليفة ذى التوفيقِ هارونِ  
كما قال يعزى الوزير الخطير الفضل بن الربيع ، عن موت مولاه القديم  
بحياة مولاه الخليفة الجديد ، بما لا يخرج عن قول أبناء زماننا « مات الملك ،  
ليجى الملك » :

تعزُّ أبا العباس عن خير هالكٍ      بأكرمٍ حيٍّ كان أو هو كأنُ  
جوادثُ أيامٍ تدورُ صروفها      لمنَّ مساوٍ مرةً ومحاسنُ  
وفى الحى بالميت الذى غيبَ الثرى ،      فلا أنت مغبونٌ ولا أنت غابنُ  
وكان الفضل ينزل في بغداد في الشارع الأعظم بأزاء درب السقائين ،  
وقد صارت الأمور كلها إليه وفوض إليه الخليفة ما وراء بابه ، فهو الذى يولى  
ويعزل ويحل ويعد عنه . واحتجب الأمين ، وفي ذلك يقول شاعرنا  
يمتدح الفضل :

لعمر ك ما غاب ( الأمين محمد ) عن الأمر يعنيه إذا شهد ( الفضل ) :  
ولولا مواريث الخلافة أنها له دونه ما كان بينهما فضل  
لئن كانت الأجساد فيها تباينت فقولها قول وفعلها فعل  
أرى ( الفضل ) للدنيا وللدين جامعاً كما السهم فيه الريش والفوق والنصل  
وذهب الأمين في الاحتجاب حتى، عن إخوته وأهل بيته وقواده.  
واستخف بهم ، وأمر ببناء مجالس لمتنزهاته ومواضع خلوته وطوره ولعبه بقصر  
الخلد والخيزرانية وبستان موسى وقصر عبدويه وقصر المعلى ورقة كلواذى  
وباب الأنبار وغيرها ، ونافس في ابتياع فره الدواب وأخذ الوحوش والسباع  
والطير . وحمل إليه ما كان في الرقة من الجواهر والخزائن والسلاح ، وانقطع  
عن تدبير المملكة مشغلاً عنها باللهو واللعب ومعاشرة الجمان ، وقسم ما في  
بيوت الأموال وما بحضرته من الجواهر في خصيانه وجلسائه ومحدثيه .  
ولما أن رأت الملكة الوالدة زبيدة ما كان من تقديم ولدها أمير المؤمنين  
للخصيان ورفعهم منازلهم مثل كوثر وغيره من خدمه وشدة شغفه واشتغاله بهم ،  
أرادت صرفه عن ذلك ، فاتخذت الجوارى المقدودات الحسان الوجوه ، وعممت  
رءوسهن ، وجعلت لهن الطرر والأصداغ والأقضية ، وألبسهن الأقبية  
والقراطق والمناطق ، فاستقدودهن وبرزت أردافهن . ثم بعثت بهن إليه ،  
فاختلفن بين يديه ، فاستحسنهن واجتذبن قلبه وأبرزهن للناس في مجالسه .  
فاتخذ الناس من الخاصة والعامة الجوارى المطمومات وألبسوهن الأقبية  
والمناطق . وامتلات بغداد بهؤلاء الفتيات اللواتى كانوا يسمونهن « الغلاميات »

وكان للأمين كآبيه الرشيد تولعٌ بالغناء ، مع الفارق في وقار الوالد ونزق  
أولده . وكان يُهَيَأُ له في قصر الخلد مجالس غناء يُتَغَنَّى فيها ، يُرْفَعُ له دكانٌ  
عالٍ يُفْرَشُ له ويُبَسَطُ عليه بساطٌ زرعى ، وتطرح عليه نمارق وفرش في  
لون البساط ، ويُضَفَّفُ له من آنية الفضة والذهب والجوهر أمرٌ عظيم .  
وتكون قيمةُ جواريه قد هيأت له مائةَ جاريةٍ صانعةٍ ، فيصعدن إليه عشراً  
عشراً بأيديهن العيدان يعزفن عليها وهن صاعداتٌ إليه ، وحين يستوين على  
الدكان يندفعن في غناء لحنٍ من اللحن بصوتٍ واحد ، ثم ينزلن ويتقدم  
عشرٌ غيرهن ، وهكذا دواليك في جوٍّ فاتنٍ ساحرٍ بما يتمايل فيه من القدود  
المليحة وما يتجاوب به من اللحن الفصيحة .

وكان يُجْزَلُ العطاء لأساطين الغناء في عهده أمثال إسحق الموصلي ومخارق  
وعلوية وغيرهم ، حتى ليروى أنه استقدم إبراهيم بن المهدي عمه فأنحدر في زورق  
إلى قصره ، وغنّاه صوتاً طرب له الأمينُ فأمر أن يُوقروا له زورقه ذهباً .  
كذلك استحدث الأمين حفلات للرقص كان يُديرها بنفسه في أهباء  
القصر الملكي ، فإذا الصحن مملوء شمعاً من الشمع الكبار وكان الصحن  
من ذلك في نهار ، وإذا الدار مملوءةً غلماناً ووصائفٍ مُحَلَّلِ الوشَى والجوهر ،  
وإذا الجوارى والمخنثون يزمرون ويضربون ، والقيان يغنين على الطبول  
والسرنايات ، والجميع في شيءٍ واحدٍ ، ومحمد في وسطهم يرتكض رقصاً في  
الكرج . ولقد شهد مخارق وإبراهيم بن المهدي إحدى هذه الحفلات ،

وكان الخليفةُ وجهَ مَنْ جاءَ بهما ركضاً . وقد جاء في وصفهما لما مرَّ بهما في تلك الليلة ، أنهما لم يبلغا القصر حتى جاءها رسول الخليفة فقال : « قوموا في هذا الباب مما يلي الصحن ، فارفعاً أصواتكما مع السرناى أين بلغ ، وإيّاكما أن أسمع في أصواتكما تقصيراً عنه » . فأصغياً للغناء المرّد :

هذى « دنانيرٌ » تنسانى وأذكرها      وكيف تنسى محبباً ليس ينساها  
واللهِ ، واللهِ ، لو كانت - إذا برزت -      نفسُ المتيّم في كفيه ألقاها  
فانطلقا يشاركان ، وما زالا يشقان      حلّقهما مع السرناى ، ويتبعانه حذراً  
من أن يخرجوا عن طبقته أو يقصّرا عنه . والخليفة الأمين يجول في الكرج  
ما يسأمه ، يدنو إليهما مرةً في جولانه ، ويتباعد مرةً ، ويحول الجوارى بينهما  
ويبنيه ، حتى الغداة .

وكان محمد الأمين شديد المحبة للشراب قوى الاحتمال له ، يجدّ بندمائه  
في الشرب ويسقيهم معظم الليل وعلى الريق . وكان إذا انتشى صاح في ندمائه  
« مَنْ منكم يكون حمارى » فكلّ واحدٍ يقول « أنا » لأنه كان يركب  
الواحد منهم عبثاً ثم يصاه . ولم يكن لأحدٍ غلبةٌ عليه في الشرب غير  
أبى نواس .

ولقد أنشد أبو نواس الخليفة بوصفه شاعر البلاط قصائد عدةً في مدحه .  
ولكن القارئ لها لا يلمس فيها من صدق الإعجاب بالمدوح ما يلمسه في  
هذه القصيدة التي قالها للأمين كما يقول النديم للنديم :

وَنَدَّمانَ يَرَى غَبناً عَلَيْهِ      بأن يُمسي ونيس له انتشاء  
إِذا نَاديته من نومٍ سكرٍ      كفاه مرةً منك النداء  
فليس بقائل لك « ايه ، دَعْنِي »      ولا مستخبر لك « ما تشاء ؟ »  
ولكن « يا اسقني » ويقول أيضاً      « عليك الصِّرفَ إن أعياك ماء »  
وذاك محمدٌ تفديه نفسى      وحقَّ له وقلَّ له الغداء

واقْد أجازه الأمين عليها بكل بيت ألف درهم .  
وكان أبو نواس في بعض الأحيان لا يتورع حتى في مدائحهِ الرسمية:  
للخليفة الشاب أن يشير إلى منادمته له وشربه معه . من ذلك قصيدته الأولى  
في مديحه وهي المطولة المشهورة التي مطلعها :

يا دارُ ، ما فعلتُ بِكِ الأَيامُ ضامتكِ ، والأيامُ نيسَ تُضامُ  
وهو مطلعٌ في وصفِ الرسومِ والديارِ ، تجيء بعده أبياتٌ في طيِّ الفياضِ  
وتجشَّم الأسفارِ من أجل المدوح جرياً على المذهب التقليدي . ولكن الشاعر  
النديم لا يلبث أن تغلب عليه نزعتُه فيجري على طبعه ويخلص إلى طريقته :  
ملكٌ أغرُّ إذا شربتَ بوجهه      لم يَعدُكَ التبجيلُ والإعظامُ  
فالبهؤُ مشتملٌ ببدرِ خلافةٍ      أبسَ الشبابَ بنوره الإسلامِ  
إن البذي يرضى الإلهَ بهديه      ملكٌ تردى الملكَ وهو غلامِ  
وليس أكثر مما يروونه من استغراق الخليفة محمد الأمين في اللهو  
والشرب ، وإظهاره الإهمال لشؤون الملك ، حتى كانت تمر السنة لا يفرغ

فيها ساعة للنظر في أخص الأمور، كأعمال الخراج والضياع ومنتصرات الحكام.  
دخل عليه يوماً إسماعيل بن صبيح كاتبه ، فإذا هو عازمٌ على الاصطباح ،  
وقد أحضر الندماء والمغنين وصفت الموائد ، وأقبل الخليفة على مائدته وابتدأ .  
فقال إسماعيل بن صبيح : « يا أمير المؤمنين ، هذا هو اليوم الذي وعدتني  
فيه أن تنظر في أعمال الخراج والضياع وجماعات العمال ، وقد اجتمعت على  
أعمال منذ سنة لم تنظر في شيء منها ، ولم تأمر فيها ، وفي هذا دخولٌ خلال  
في الأعمال » . فقال له محمد : « إن اصطباحي لا يحول بيني وبين النظر ،  
وفي مجلسي من لا أنقبض عنه ، من عمي وبني عمي وإخوتي ، وهم أهل هذه  
النعمة التي تجب أن تحاط ، فأحضر ما تريد عرضه ، فأعرضه علي وأنا  
آكل ، لأتقدم إليك فيه بما تحتاج إليه ، إلى أن يرفع الطعام ثم أتم النظر  
فيما يبقى ، ولا أسمع ساعاً أو أبرم الباقي وأفرغ منه . فحضر كتاب الدواوين  
بأكثر ما في دواوينهم ، وأقبل إسماعيل بن صبيح يقرأ عليهم ومحمد يأمر  
وينهى بأحسن أمرٍ ونهى وأشدّه ، ورُبَّما شاور من حوله في الشيء بعد الشيء ،  
وكما وقع في شيء وُضع بالقرب من إسماعيل بن صبيح . ورفعت الموائد ،  
ودعا بالنبيذ ، وكان لا يشرب في القدر أقل من رطل واحد في تميم العمل ،  
ثم دعا بخادم له ، فناجاه بشيء أسره إليه ، فمضى ثم عاد ، فلما رآه نهض  
واستهض سُلَيْم بن علي وإبراهيم بن المهدي ، فسامشوا عشر أذرع ، حتى  
أقبل جماعة من النفاطين ، فضربوا تلك الكتب والأعمال بالنار ، وكان

الفضل بن الربيع حاضراً . فلحق محمداً وقد شق ثوبه وهو يقول : « الله الله » .  
أعدل من أن يرخصي ذلك » ومحمد يضحك .

وكان الوزير الفضل بن الربيع تساوره المخاوف ، إن وافى الأمين أجله  
وولي الخلافة المأمون أن يجزيه شراً بفعلته . فجعل يزيد للأمين صرف  
ولاية العهد من بعده إلى ابنه موسى ، وهو يومئذ طفل صغير لا يعرف  
حسناً ولا يعقل قبيحاً ، ولا يخلو من الحاجة إلى من يخدمه في ليله ونهاره .  
ويقضته ومنامه وعوده وقيامه . ومن ثمة وقع الخلف بين الأمين والمأمون  
ومكر كل واحد منهما بصاحبه ، واستشرى الفساد واشتدت العداوة بين  
الأخوين . فقطعت الدروب من بغداد إلى خراسان وقُتشت الكتب وصعب  
الأمر . وفي شهر ربيع الأول عام ١٩٤ عقد الخليفة لابنه « موسى » على  
جميع ما استخلف عليه وأسقط اسم المأمون من الخطبة في بغداد وقبض على  
وكلائه . وكذلك فعل المأمون بخراسان . ونما الشر بينهما . وتقدر ما كان  
عند المأمون من التيقظ والضبط كان ما عند الأمين من الإهمال والتفريط  
والغفول . وسارت الركبان بغدر محمد الأمين بأخيه وقبح سيرته ، مع حسن  
سيرة المأمون وما كان يُظهره من الورع والدين . فاستوحش الناس من الأمين  
وانحرفوا عنه . وفي سنة ١٩٥ جهز الخليفة علي بن عيسى بن ماهان ومعه  
عسكر كثيف وسلاح كثير وأموال وافرة . وخرج معه الخليفة مشياً  
مودعاً . ثم تشاغل بعدها بلهوه وبطالته وتخلي عن كل تدبير للقائد والوزير .  
وشخص علي بن عيسى إلى حرب المأمون فلاقاه قائده طاهر بن الحسين ظاهر

مدينة الري، فاقتتلوا قتالا شديدا كانت الغلبة فيه لظاهر وقتل علي بن عيسى .  
وكان ذلك جميعه ، والأمين في غفلةٍ سادرت في لذته ، منهمك في لعبه .  
متفرغٌ لصيده ونزهته . حتى ليروي أنه حين ورد نعيُّ عليٍّ قائده ، كان في  
وقته ذلك على شطِّ دجلة يصيد السمك . فقال للذي أخبره « ويلك ! دعني ،  
فإن كوثراً قد اصطاد سمكتين وأنا ما اصطدتُ شيئاً بعد » . على أن الأمين لم  
يلبث أن أفاق للخطر ، لما شاع الخبرُ بأن المأمون أعلن خلعَه بعد أن أتاه  
كتاب قائده بالعز والنصر ، ودعا بالخلافة لنفسه في جميع كور خراسان  
وما يليها ، فجعل الأمينُ يتابع إرسالَ الجيوش والقواد واصطنع في أمره .  
شيئاً من الجد .

وجعل الأمين يحمل على نفسه فيخرج لقواده وجنده وعامة رعيته بين  
الفينة والفينة ، وقد ساءت ظنونهم وكَبُرَ عندهم ما يرونه من احتجاجه عنهم .  
فكان يجلس لهم بعض الأحيان ساعةً من نهارٍ ، وبين يديه الفضل بن  
الربيع وزيره واسماعيل بن صبيح كاتب سره ، ليكون ذلك تسكيناً  
لهم ومراجعةً لآمالهم . وكان إذا جلس في مجلسه هذا أذن للناس عامةً ،  
فدخلوا على مراتبهم ومنازلهم ، وقام الخطباء فخطبوا والشعراء فأنشدوا . بيد  
أنه لم يكن أحدٌ منهم يتعدى إلى الاطناب والتطويل إلا أمر بالسكوت .  
ومنع من القول . وفي هذه المناسبات أنشد أبو نواس مدائحَه القصار في  
الخليفة الأمين ، نذكر منها قوله :

ألا يا خيرَ مَنْ رأت العيونُ نظيرك لا يحسن ولا يكونُ

وفضلك لا يحدُّ ولا يُجَارَى ولا تحوى حيازته الظنونُ  
فأنت نسيجٌ وحدك لا شبيهةٌ نحاشيه عليك ولا خدين  
خلقتَ بلا مشاكلةٍ لشيءٍ فأنت الفوقُ، والثقلانِ دونِ  
كأن الملكُ لم يك قبلُ شيئاً إلى أن قام بالملك الأمين  
وكان الخليفة قد أمر بعمل خمس حرافات في دجلة على خلقة « الأسد »  
و « الفيل » و « العقاب » و « الحية » و « الفرس » ، وأنفق في عملها مالا  
عظيماً ، وقد اتخذها للنزهة . وكان إذا خرج لركوبها اصطفت له الخليلُ وعليها  
الرجال على شاطيء دجلة ، وحملت معه المطابخ والخزائن . وفي مرةٍ من هذه  
المرات كان ركوبه إلى الشماسية في الحرّاقة التي على مثال الأسد . فما رأى  
الناس منظراً ولا مسيراً كان أمهياً وأحسن من ذلك المنظر والمسير . وركب  
ذأبو نواس معه يومئذ وهو ينادمه فقال :

سخر الله للأمين مطايا ، لم تُسخرُ لصاحب المحرابِ  
فاذا ما ركابه سرن بجرأً سار في الماء راكباً ليث غاب  
أسداً باسطاً ذراعيه يعدو . أهرت الشدق كالح الأنياب  
لا يعانیه باللجام ولا السو ط ولا غمز رجله في الرّكاب  
عجب الناس إذ رأوك على صو رة ليثٍ تمرّ مرّ السحاب  
سبحوا إذ رأوك سرّت عليه كيف لو أبصروك فوق العقاب  
ذات زورٍ ومنسرٍ وجنّاحٍ بين تشقُّ العباب بعد العباب  
تسبق الطير في السماء إذا ما استعجلوها بجيئةٍ وذهابِ

بارك الله نلأمين وأبقا ه وأبقى له رؤاء الشباب  
ملك تقصر المدائح عنه هاشمي موقف للصواب  
ولأبي نواس غير هذه قصيدة أخرى في حرافة على مثال الدلفين، مطلعها :  
قد ركب الدلفين بدر الدجى مقتحمًا في الماء قد لججا  
ولما كان أبو نواس في مجاهرته بالمعاصي وتهتكه في السكر قد شاعت له  
سمعة قبيحة ، واشتهر بشهرة فاضحة ، فقد وجد دعاة المأمون في منادمته  
للأمين واختصاصه به وجهًا من أوجه الحيلة للزراية على خليفة بغداد والعيب  
عليه باحتماله إياه . فكان وزير المأمون الفضل بن سهل ذو الرياستين يخطب  
بمساوى الأمين ويحرض الناس على قتاله ، وقد أعد رجلاً يحفظ شعر أبي  
نواس فيقول : « ومن جلساء محمد الأمين رجل ماجن كافر مستهزئ يقول  
كذا وكذا » وينشد قوله :

ألا فاسقنى خمرًا وقل لى هى الخمر ولا تسقنى سرًا إذا أمكن الجهر  
وينشد قوله :

يا أحمد المرتجى فى كل نائبة «قم سيدى - نعص جبار السموات  
وغير ذلك من قبائح شعره ومجونه . ويذكر أهل العراق فيقول : « أهل  
فسق وفجور ، وخور وماخور » . فيلعنهم من يحضر المجلس من أهل خراسان .  
فكتب بذلك إلى محمد الأمين عيونه ، فجزع لذلك وأراد التنصل من التبعة  
وإسقاط الحجة ، بأن يظهر غضبه على الشاعر وينزل به نقمته . وكان قد  
اتصل به عنه أبيات أحفظته عليه ، منها قوله وهو سكران :

إِسْتَقْنِيهَا يَا ذِفَافَهُ      مُرَّةَ الطَّعْمِ سُلاَفَهُ  
ذَلَّ عِنْدِي مِنْ جَفَاهَا      لِرَجَاءِ وَمَخَافَهُ  
مِثْلَ مَا ذَلَّتْ وَضَاعَتْ      - بَعْدَ هَارُونَ - الْخِلاَفَهُ

ومنها قوله مفاخرأ وهو بحال من العسر والحاجة :

وَقَدْ زَادَنِي تِيهًا عَلَى النَّاسِ أَنْتَى      أَرَانِي أَغْنَاهُمْ وَإِنْ كُنْتُ ذَا عُسْرٍ  
وَلَوْلَمْ أَنْلِ فَضلاً ، أكَانَتْ صِيَانَتِي      فَمِي عَنْ جَمِيعِ النَّاسِ حَسْبِي مِنَ الْفَخْرِ  
وَلَا يَطْمَعُنْ فِي ذَاكَ مِنِّي طَامِعٌ      وَلَا صَاحِبُ التَّاجِ الْمُحْجَّبِ فِي الْقَصْرِ

فبعث الأمين بإحضاره ، وعنده أعدى أعدائه سليمان بن جعفر بن أبي جعفر . فلما حضر الشاعر ومثّل بين يدي الخليفة بادره : « يا ابن اللخناء العاهرة » وشمته أقبح الشتم . وقال : « أنت تتكسب بشرك أوساخ أيدي جميع الناس ، ثم تقول (ولا صاحب التاج المحجّب في القصر) . أما والله لانيّت منّي شيئاً أبداً » . فقال سليمان : « وهو والله يا أمير المؤمنين من كبار الثنوية » فقال الخليفة : « أيشهد عليه بهذا أحد ؟ » فاستشهد سليمان جماعةً شهدوا عليه بالشرب والفسق . فوجه به الخليفة إلى الفضل بن الربيع وأمره بحبسه مع قوم كانوا يتهمون بالزندقة .

وطال حبسُ أبي نواس في المطبق ، حتى يئس من عفو الأمين ، ولم تبق له بارقة أمل في الخلاص إلا بدخول المأمون . وذلك في قوله :

يَا رَبِّ إِنَّ الْقَوْمَ قَدْ ظَلَمُونِي      وَبِلا اقْتِرَافٍ مَعْطَلٍّ حَبَسُونِي  
وَالِي الْجُحُودِ بِمَا عَلَيْهِ طَوَيْتِي      بِالزُّورِ وَالْبُهْتَانِ قَدْ نَسَبُونِي

ما كان إلا الجري في ميدانهم في كل خزي ، والمجانة ديني  
لا العذر يُقبل لي ، ويفرقُ شاهدي منهم ، ولا يرضون حلف يميني  
أما الأمين فليست أرجو دفعه عني ، فمن لي اليوم بالمأمون !  
وكان للفضل بن الربيع خالٌ يعرض أهل السجون ويتفقدهم  
ويتعهدهم ، فدخل إلى حبس الزنادقة الذي فيه أبو نواس ، ولم يكن يعرفه ،  
فقال له : « يا هذا أنت مع الزنادقة ؟ » . فقال له أبو نواس : « معاذ الله » .  
فقال له : « فلعلك ممن يعبد الكباش ؟ » . فقال له : « أنا آكل الكباش  
بصوفه » . فقال له : « فلعلك تعبد الشمس ؟ » . فقال له : « إني لأتجنب القعود  
فيها بعضاً لها » . فجاء إلى الفضل فقال له : « يا هذا ! لا تحسنون جوار نعم الله  
بحبس الناس بغير جرم » . فقال الفضل : « وما ذاك ؟ » فخبّره الخبر .  
فضحك منه ، ودخل على الخليفة فأخبره وشفع إليه فيه . فدعا به ، وأمر  
باستحلافه وأخذ العهد عليه أن يجتنب الخمر والسكر .

ولزم أبو نواس بيته من خوف المطبق ، وظلّ على ذلك أياماً يظهر التوبة  
ويتذرع بالنسك والتقوى . وإلى القارئ الصورة التي يمثّلها لنفسه كما يريد  
الخليفة ووزيره على أن يكون ، وهي : وان تكن صورة ناسكٍ مبتليٍّ -

لا تكاد تُجنى ما وراءها من التهم على النسك والسخر بالناسكين :

أنت يا بن الربيع ألزمتني الذ  
سكّ وعودتني ، والخير عاده  
فارعوى باطلي ، وأقصر حبلي  
وتبدلتُ عفةً وزهاده  
لوتراني ، ذكرتُ للحسن البه  
برى في حسنِ سَمْتِهِ ، وقتاده

المساييح في ذراعى ، والمص  
وإذا شئت أن ترى طرفةً تع  
فادعُ بي - لا عدمتَ تقويمَ مثلى -  
ترَ أثراً من الصلاة بوجهى  
لو برآها بعضُ المرائين يوماً  
ولقد طال ما شقيتُ ولكن

وكان الفتيان يتعرضون لأبي نواس للشرب معه ، وهو يستغفيمهم ويعتذر  
إليهم . فقال بعضهم : « وإن لم تشرب فأنسنا بحديثك » . فأجاب ، وحضر  
مجلسَ شربهم . فلما دارت الكأس بينهم عادوا يعزمون عليه ويستهوونه :  
« ألم ترَ تخ لها ؟ » . قال : « نعم والله ! ولا سبيل إلى شربها » وأنشأ يقول :

أيها الرأحان باللوم ، لوما لا أذوق المدام إلا شمياً  
نالتى باللام فيها إماماً لا أرى فى خلافه مستقياً  
فاصرِّفاها إلى سواى ، فانى لستُ إلا على الحديث نديماً  
إن حظى منها إذا هى دارت أن أراها وأن أشمَّ النسيماً  
فكأنى وما أحسنُ منها - قعدىُّ يزىُّن التحكيميا  
كلَّ عن حملهِ السلاح إلى الحرب فأوصى المطيق ألا يقياً

على أن النواسى لم يلبث أن غلب عليه طبعه ونازعته إلى الخمر نفسه .  
وكيف يتنكر لها أو يسلو عنها وإنه ليحسُّ بينه وبينها نسباً شابكاً ورِحماً  
ماسّة ، فهو تارة ابنها ، وهى تارة شقيقةٌ روحه :

أنا ابن الخمر ، مالى عن غذاها - إلى وقت المنية - من فطامِ

لأتمى فى المدام - غيرَ نصحِ - لا تلمنى على شقيقةِ روحى

فعاد التائب السكير لسيرته الأولى فى المواخير ، عا كفاً على بنت الدنان  
من جديد عكوفاً ما عليه من مزيد ، ووقف عليها أوقاته يُعوض منها ما فاته .  
ورُفِعَ ذلك إلى الخليفة فأمر به مُحبس ثلاثة أشهرٍ . وقد حكى صاحبُ  
الشرطة أنه لما حبس أبو نواس ، كان أكثرُ من يزوره فى حبسه المرُودَ  
والشبان ، والخمارين ، وأصحاب الريبة . ويقول صاحب الشرطة إنه عرف  
منهم وقتئذ من لم يكن عرفه من قبل ذلك ، فجعل عليهم الضرائب ، ثم فقدَ  
ذلك لما أطلق الشاعر لتفرقتهم . وأخيراً دعا الخليفةُ به وحوله بنو هاشم  
وغيرهم ، وكان قد دعا بالنطع والسيف يهدده بالقتل . فأنشد أبو نواس هذه  
الآيات مستعظفاً :

تذكرُ أمينَ الله - والعهدُ يُذكرُ  
ونثرى عليك الدرّ ، يادرّ هاشم !  
أبوك الذى لم يملك الأرضَ مثله  
وجدّك مهديُّ الهدى ، وشقيقه  
ومن مثل منصوريك : منصورِ هاشم  
فمن ذا الذى يرمى بسهميك فى العلاء  
تحسنت الدنيا بوجهِ خليفةِ  
مُقامي وإنشاديك والناسُ حُضِرُ  
فيا مَنْ رأى درّاً على الدرّ يُنثر !  
وعُمك موسى الصفوة المتخبر  
أبو أمك الأذنَى أبو الفضل جعفر  
ومنصور قحطان إذا عدّ مَفخرُ  
وعبدُ منافٍ والداك وحير  
هو البدرُ إلا أنه الدهرُ مُعمر

أيا خير مأمولٍ يُرَجَى : أنا امرؤ  
مضت لي شهورٌ - مذحبتُ - ثلاثة  
أسيرٌ رهينٌ في سجونك مقبر  
كأنى قد أذنتُ ما ليس يُغفر  
فإن كنتُ لم أذنب ، فقيم حبستني  
وإن كنتُ ذا ذنب فعفوك أكبر  
فقال له الخليفة : « فإن شربتها؟ » قال : « دمي لك يا أمير المؤمنين »  
نفلِّي سبيله .

والظاهر أن تهديد الخليفة في هذه المرة قد أفرعه وروعه . فقد ظل زمناً  
يرفض الحمر ، وكما هم بالخالفه ذكر موقفه بين النطع والسيف ، فقال يخاطب نفسه :

أطع الخليفةَ واعصِ ذا عَزْفٍ      وتنحَّ عن طَرَبٍ وعن قَصْفِ  
عينُ الخليفةِ بي موَكَّلَةٌ      عَمَدَ الحِذَارِ بَطرفه طرفي  
صحتُ علانيتي له ، وأرى      دينَ الضمير له على حَرْفِ  
فلئن وعدتُكَ تركها عِدَّةً      إني عليك لخائفٌ خُلْفِ

وهو يذكر في أسفٍ لا يخفى كيف كان يغدو إلى حوانيت الحمر فيملاً  
زقَّةً من صفوها قبل الزقاق ، ويجوز قبلها قصبَ السباق . ولكن ما الحيلة  
وهذا أمر ملك العراق ، قد جعل هلاكه في كفِّ ساقٍ :

أعاذلُ ، لا أموت بكفِّ ساقٍ      ولا آبي على ملك العراقِ  
هجرتُ له التي عنها نهاني      وكانت لي كمسكة الرِّماقِ  
وقد يغدو إلى الحانوتِ زِقِّي      فيأخذ عَفْوَهُ قبل الزِقاقِ  
وكنَّ إذا نزعن إلى مسداه      خوى - قدَّامها - قصبَ السباقِ

على أن الشاعر وإن يكن قد أقلع عن الخمر لم يكف عن ذكرها واللهج  
بأوصافها :

لولا الأمير ، وأن العذر منقصةٌ      والعار بالعدر عندي أقبحُ العارِ  
جاءت بخاتمها من بيت خمار      رُوحٌ من الكرم في جسمٍ من القار  
فالريحُ ريحٌ ذكيُّ الأذفر الدارى      والبردُ بردُ الندى ، واللون للنار  
ولكن هذا لم يُرضِ أولى الأمر ، فشدوا عليه في ترك التغنى بالخمر .  
فكأنما قضى على هذا التأثير على مذهب العرب في الشعر ، الساخر من أوصافهم  
للطول والقفرة ، أن ينعتها وإن يكن كارهاً لها :

أعير شعرك الأطلال والدن القفراً      فقد طال ما أزرى به نعتك الخرا  
دعاني إلى وصف الطول مسلطاً      تضيق ذراعى أن أجوز له أمراً  
فسمعاً أمير المؤمنين وطاعةً      وإن كنت قد جشمتني مركباً وعرا

ومع هذا فقد كان الشاعر يحتال لنعته ، ثم كان لا يعدم في مجلس  
الشراب بعض التعزية عنها ، فثمة - على الأقل - الساقى المليح الغرير ، إذا هو  
طاف بالخمر فلم يشربها من يديه ، شربها لذيذة مسكرة من سحر عينيه :

أعاذل ، أعتبتُ الإمام وأعتبا      وأعربتُ عما في الضمير وأعربا  
وقلتُ لساقينا «أجزها» فلم يكن      ليأبى أمير المؤمنين وأشربا  
فجوزها عني سلافاً ترى لها      إلى الأفق الأعلى شعاعاً مطنبا  
إذا عبّ فيها شاربُ القوم خلتُهُ      يُقبَلُ في داجٍ من الليل كوكبا

يدور بها ساق أغن ترعى له على مستدار الأذن صدغا معقربا  
سقاهم ومناني بعينه منية فكانت على قابي الذ وأطيبا  
وكان شاعرنا مسرأفا مضياغا لا تحوى يده على عطاء مهما جل حتى  
يتلفه على الخمر والندمان . ولقد حمل ما حمل إليه أولاً وآخرأ من جوائز ممدوحيه  
من الملوك والأمراء والوزراء وأرباب الدولة ، وترادف ما ترادف عليه من  
صِلات محبي منادمته من السراة وأهل النعمة ، ولكنه لم يدخر من ذلك كله  
شيئا . وباليته وقف في غرامه بالخمر واستهتاره بها عند إتلاف ما لديه فيها ،  
بل صار يزرى على من لا يفعل فعله من عشاقها وخاطبيها :

ياقهوة حرمت إلا على رجلٍ أترى فأتلف فيها المال والنسبا  
فلا غرو، وقد نزت الخمر ما عنده من مال، أن تشتد به الحاجة ويعانى  
جهد الحال ، لا سيما والخليفة غير مقبل عليه كما كان . فهو يتوجه إلى آل  
الفضل بن الربيع بالسؤال بعد السؤال يستمنحهم ويستدر عطاءهم فيبطئون  
عنه . ويشكو الشاعر من خلف الوعد وكثرة المطلب ، فيثقل عتابه على نفوسهم  
ويُلقي في الحبس . فيكتب الشاعر الى الفضل في حبسه معتذراً إليه ذا كراً  
برّه طالباً عفوه :

أبا العباس ، ما ظني بشكرى إذا ما كنت تغفو - بالنميم  
وكنت أبا، سوى أن لم تلدني - رحياً أو أبر من الرحيم  
لئن أصبحت ذا جرّم عظيمٍ لقد أصبحت ذا عفوٍ كريم  
ويتشفع بجعفر أخى الفضل قائلاً :

فلا تجحدوا بني ودَّ عشرين حِجَّةً ولا تُفسدوا ما كان منكم من الفضل  
وفيا يرويه الرواة من هذه الأخبار أن أبا نواس صار إلى العباس بن  
الربيع في حاجة فلم يقضها له ، فخرج من عنده وهو يقول :

لعمرك ما (العباس) من ولد (الفضل) فيرجى لعرفٍ أو يغار على بذلِ  
فتى كَلَّا ناديتَه للممةِ دعوتَ مثالا لا يُمرُّ ولا يُحلى  
فبلغه ذلك فشكاه لأبيه ، فأمر بكر بن المعتمر ، فأخذه وضر به وحبسه  
وقيده وأسلمه إلى سجانٍ فظَّ غليظٍ كان على المطبق اسمه « سعيد » فضيق  
عليه وآذاه . فكتب الشاعر السجين رقعة وأنفذها إلى بكر فيها :

وقيتَ بي الردي اِزِدْني قِيودًا وثنَّ عليَّ سوطًا أو عمودا  
ووكَّلْ بي وبالأبواب دوني من الرقباء شيطانًا مريدا  
وأعفِ مسامعي من صوتِ رجبٍ ثقيلٍ شخصه يدعي « سعيدا »  
فقد تركَ الحديدَ عليَّ ريشًا وأوقرَّ بغضه قلبي حديدا  
فضحك بكر من الأبيات ، ووقف الفضل عليها ، فأمر بإطلاقه فخرج  
وهو يقول :

يا فضلُ قد أوسعتني عِظَةً ما بعدها غَلَطٌ ولا سهوُ  
ولما كانت الفرصة مؤاتيةً لكل مضطغنٍ على أبي نواس ، موتور  
بهجائه له ، أن يسعى به لدى السلطان ويرميه بالحق أو بالباطل بإحدى  
موجبات الحدود ، فقد كثر ما كان يُرفع إلى الأمين من الاتهامات ، ينسبون  
فيها الزندقة والكفر إلى الشاعر ، حتى صحَّ عزمه على قتله ، وجعل أمر ذلك

الى وزيره الفضل بن الربيع وكان واجداً عليه . فأتى بالشاعر وقال له : « رُفِعَ  
إلى أمير المؤمنين أنك زنديق » . فجعل يبرأ من ذلك ، ويحلف . وجعل الفضلُ  
يكرّر عليه ، ثم أعاده الى الحبس . وبقى أبو نواس في المطبق دهنراً وهو  
يتربّب الموت بين لحظة وأخرى ، وقد تخلى عنه أصدقاؤه وثقاته ، وذلك حيث  
يقول :

أخلائى أذمكم إليكم      وكنتم بمدحكم قميناً خليفا  
إذا استبطأتكم عنفتموني      وقلتم إن فيه لذاك ضيقا  
فأقسم لو تكونون الأسارى      وكنتم أنا الخلى والطيقا  
إذا جهدت فوق الجهد حتى      أطيق خلاصكم أولاً أطيقا  
فلا - والله - أذخركم هجاءً      وشتماً ما بقيت - ولا عقوا

وأخيراً كلم الفضل الخليفة فيه ، فأطلق سبيله . فخرج وهو لا يصدق  
أنه قد أطلق ، ومضى الى أهله يقول :

أهلى ، أتيتكم من القبر      والناس محتبسون للحشر  
لولا أبو العباس ما نظرت      عيني الى ولدٍ ولا وفرٍ  
وكتب الى الفضل :

ما من يدٍ فى الناس واحدة      كيدٍ أبو العباسٍ أولها  
نام الثقات على مضاجعهم ،      وسرى الى نفسى فأحياها  
قد كنت خفتك ، ثم أمننى      - من أن أخافك - خوفك الله  
فغفوت عنى عفواً مقننر      وجبت له نقمٌ فألغاهها

وكانت جيوش طاهر المأمونية قد تقدمت ونزلت حلوان ، وذلك على خمسة أيام من بغداد مدينة السلام . فاضطربت الناس من زيادة أمره ، وادبار أصحاب الأمين وهزيمتهم في كل حال . وأيقنت القلوب بغلبة المأمون ، فسقط في يدي الفضل بن الربيع وأصحابه . ورجع الخليفة إلى قواده وبطانته يجمعهم ويشاورهم ويكرر عليهم « أَحْضَرُونِي غَنَاءَكُمْ كَمَا أَحْضَرْتِ خِرَاسَانَ عَبْدَ اللَّهِ غَنَاءَهَا » ، ويستحث فيهم قيام رجل مثل طاهر قائد خصمه ، ويقول فيه : « أما والله ، لقد حدثتُ بأحاديث الأمم السالفة وقرأتُ كتبَ حروبها وقصصَ من أقام دولها ، فما رأيتُ في ذلك كله حديثاً لرجل منهم كذا الرجل في إقدامه وسياسته . وقد قصد إليّ واجترأ عليّ ، فها توال اليوم ما عندكم » .

ولكن جيوش محمد ما برحت تنهزم بين يدي طاهر ولم تقم لها قائمة . وأراد بعضُ الأمراء أن يستجيشَ الأمين جنداً من الشام والجزيرة ممن أدبتهم الشدائد وضرستهم الحروب . فأبى سوء حظ الأمين إلا أن تقوم فتنةٌ فيهم بين الأبناء الجزريين وأهل الشام الزواجيل . فانفضَّ أهلُ الشام إلى بلادهم . ونادى قائد الأبناء الحسين بن علي بن ماهان في عسكره بالرحيل قاصداً بغداد ، فلما وصلها خلع الأمين في ١١ رجب سنة ١٩٦ وحبسه وأعلن البيعة للمأمون . ولكن كبار الأبناء ثاروا على قائدهم وأسرّوه ، وأطلقوا الأمين ، وأعدوه في مجلس الخلافة .

وبينما كانت الأمور في بغداد على هذه الحال من الاضطراب والفساد ، كان أمر المأمون على غاية ما يكون من النظام وإحكام التدبير . وقد أرسل

من قواده هرثمة بن أعين فتسلم من ظاهر بن الحسين ما غلب عليه من الكور والمدن بشرق بغداد ، وتحوّل ظاهر إلى الأهواز والبصرة في غربتها ، ليكون الهجوم على بغداد من جهتين .

ولم تلبث أن اجتمعت الجيوش المأمونية حول بغداد ، فحوصرت من عدة جهات ، وقطعت عنها الأزواد والتجارة ، ونُصبت عليها المنجنيقات والعرادات وصارت المدينة ترمى في كل وقت بالحجارة . فكثُر الهدم والتحريق ، وخربت الديار ، وعفّت الآثار ، وانهبت الأموال وغلت الأسعار . وبلغت الشدة بالناس كل مبلغ . وانفضّ عن الخليفة المنكود الحظ طُلاب الجاه وأرباب المراتب من خاصته ، والتجار ، وأصحاب الأموال والودائع والذخائر . والعجيب أن الذين بقوا على الولاء وصمدوا للدفاع خلق من السوقة والعيارين وأهل السجون . وكانوا على مداخل المدينة يقاتلون نصف عراة ، في أوساطهم التبايين والمآزر ، وقد اتخذوا الرءوسهم دواخل من الخوص يسمونها الخوذ ، ودرقا من الخوص والبوارى قد قُيّرت وحُشيت بالحصى والرمل . وكان على كل عشرة منهم عريف ، وعلى كل عشرة عرفاء تقيب ، وعلى كل عشرة نقباء قائد ، وعلى كل عشرة قواد أمير . ولقد ارتضى بعضهم أن يكون مركباً للرؤساء يركبونهم بالمقاود واللجم والمذاب . وعلى هذه الحال كان يتقدم الرؤساء منهم والمقاتلة إلى الحرب مع أصحاب الخيول الفره والجواشن والدروع

والتجافيف والسواعد والدرق التبتية ، فهؤلاء عراة رهؤلاء بكامل العدة ، فكان يُقتل منهم الخلق الكثير .

ولقد سجل هذه الأحداث وقعةً وقعةً في قصائد عدة ، زميل أبي نواس ومواطنه البصري ، صاحب الأخبار الكثيرة معه ، عمرو بن عبد الملك العنزي الوراق ، وهو على مجونه قد اشتغل بهذه الخطوب واهتم لها .

وأما أبو نواس فإنه في وسط هذه الحروب والفتن لم يكن له هم ، وقد شغل عنه أولو الأمر ، إلا أن يستأنف حياة الفجور والسكر . وإذا كان لم يفكر في خيانة الأمين والانحياز الى خصمه ، فإنه كذلك لم يخطر له أن يحمل سيفاً أو يعتقل رجلاً في القتال عنه . وإنما كان ميدانه مجلس اللهو ، وآلات حربه مقارعة الأقداح والترامى بالزهر ، وقد استبدل بهيعة الوغى وسفك الدماء صوت المعازف وحمرة الخمر :

إذا عبأ أبو الهيجا      للهيجا فرسانا  
وسارت راية الموت      أمام الشيخ إعلانا  
وشبت حربها واشتعلت      تلهب نيرانا  
جعلنا القوس أيدينا      ونبل القوس سوسانا  
وقدمنا مكان الرمح      والمطرذ ريحانا  
فعدت حربنا سلماً      وعدنا نحن خلائنا  
بفتيان يرون القته      ل في اللذة قربانا  
إذا ما ضربوا الطبل      ضربنا نحن عيدانا

وَأَنْشَأْنَا كِرَادِيْسًا      مِنْ الْخَيْرِيِّ الْوَانَا  
وَأَحْجَارُ الْجَانِيْقِ      لَنَا تَفَاحُ لُبْنَانَا  
وَمَنْشَا حَرَّ بِنَاسَاقِ      سَبَا خَمْرًا فَسْقَانَا  
يَحِثُّ الْكَاسَ حَتَّى يَدَا      حَقُّ الْآخِرِ أَوْلَانَا  
تَرَى هَذَاكَ مَصْرُوعًا      وَذَا يَنْجِرُّ سَكْرَانَا  
فَهَذِي الْحَرْبَ، لِأَحْرَبِ      تَعْمُ النَّاسَ عَدْوَانَا  
بِهَا نَقْتَلِهِمْ ، ثُمَّ      بِهَا نَنْشُرُ قَتْلَانَا

وهذه مقابلة أخرى من مقابلاته بين الحربين :

أَحْسَنُ مِنْ رَمَى بِعَرَّادَةٍ      وَمِنْ قَذَافِ الْمَنْجَنِيْقَاتِ  
مُسَامِرٌ فِي مَجْلِسِ حَاضِرٍ      أَمَامَ أَعْوَادِ وَنَايَاتِ  
وَقِيْنَةٌ تَشْدُو عَلَى صَحْبِهَا      تُعْطِيكَ أَسْبَابَ اللِّذَازَاتِ  
فَذَاكَ يُسَلِّي الْمَهْمَ لَا مَعْرَكُ      يَرْمِي بِأَحْجَارِ الْمَنْيَّاتِ

وإذا كان هذا حال صاحبنا ، فالأمر ليس رأيًا يرتثيه ومذهبًا في التفكير يذهب إليه ، وإنما هوشية في أصل تكوينه وتركيب طباعه . وإليك عذره وهو لا شك أدري بنفسه :

يَا «بِشْرُ» مَالِي وَالسَّيْفِ وَالْحَرْبِ      وَإِنْ نَجْمِي لِلَّهِوَ وَالطَّرْبِ  
فَلَا تَتَّقْ بِي فَإِنِّي رَجُلٌ      أَكْعُ عِنْدَ اللِّقَاءِ وَالطَّلْبِ  
وَإِنْ رَأَيْتُ الشُّرَاةَ قَدْ طَلَعُوا      أَلْجَمْتُ مُهْرِي مِنْ جَانِبِ الذَّنْبِ

ولست أدري ما الساعدان، ولا الترس، وما بيضة من اللبب.  
همي إذا ما حروبهم غلبت، أي الطريقين لي إلى الهرب.  
لو كان قصفٌ وشربٌ صافيةً وجدتني ثم فارس العرب.  
وقد روى إبراهيم الطبري أنه كان في أيام الفتنة جالساً على بابيه إذ مرَّ به  
أبو نواس وقال: «قم حتى نأخذ من شأننا» فدخل فجعل يشربان. وأقبل  
الداخل بعد الآخر يدخل إليهما فيقول: «كان كذا وكان كذا» فأنشأ أبو نواس:

عندي للخمرة أسماء لها دواء لها داء  
يُصلحها الماء إذا صُفقت وربما أفسدها الماء  
وقائلٌ كانت لهم قصة فيها أحاديث وأنباء  
قلت له: «أي امرئٍ جاهلٍ فيك عن الخيرات إبطاء  
اشرب ودعنا من أحاديثهم يصطليح الناس إذا شاءوا»

ولم تزل الحرب قائمة بين الفريقين: المأمونية، والحمدية، أربعة عشر  
شهرًا. وكان القتال يشتد كل يوم عما قبله، وصبر الفريقان جميعًا. وانقطعت  
الموارد بالأمين في أرزاق الجند، فضرب الآنية من الذهب والفضة سرًا وأعطى  
رجالها. ثم شغب عليه من لم يعطهم من قاداته وجنده وخذلوله، واقتصرت  
حامية الخلوغ وجنده على العراة أصحاب خوذ الخوص ودرق البواري ورماح  
القصب وأعلام الخرق وبوقات القصب وقرون البقر. وكانوا في حربهم  
كالشياطين، وقد اتخذوا تحت آباطهم الخالي فيها حجارة وقطع أجر يتدرون.

بها الفرسان ويصرعونهم عن أفراسهم . فصار القتل أعمّ في أصحاب طاهر ،  
والغرق والحريق في العراة أصحاب الخلووع . واشتدّ الأمر بالناس أي اشتداد  
وهم تحت وابل المنجنيقات والعرادات ، ينتقل أهل السكك والدروب  
من موضع إلى موضع ، حتى ضاق أهل بغداد بها ، وصار أكثرهم يسخطون  
على الأمين ما جلب على الأمة بغدره وسوء رأيه . وكثر القتل في الطرق  
والشوارع . يُنادى هذا « يا للأمون » ، وهذا « يا للخلووع » ، فيقتل  
بعضهم بعضاً . واتهبت الدور ، وأعملت النار ، وعظمت الحال . وكان الفوز  
الأكبر والفرح الأعظم لمن نجا بنفسه من رجلٍ وامرأةٍ ، وكبيرٍ وصغيرٍ بما  
يسلم معه ، إلى عسكر طاهر فيأمن على دمه وماله . وشدّد طاهر النكير وضيق  
الخصاق . وأقبل يقطع من بغداد الشارع بعد الشارع ، فينحاز إليه من يصير  
في حيزه من أهل تلك الناحية ، ويعاونونه في حربه . واشتدّ الأمر على محمد  
الخلووع وجدّه به . فنصح إليه من نصح بالتسليم . وألحّ عليه الصعاليك من  
أصحابه بالخروج من المدينة بالليل إلى بلاد الجزيرة وديار ربيعة ، لاستنفار  
الرجال وجباية الأموال ، ثم العودة للقتال . فما زال به دعاة التردد والهزيمة  
حتى أسلموه إلى يد عدوه القائد طاهر بن الحسين ورجاله ، فأخذته سيوفهم  
حتى قتلوه .

وهنا انقلب الكثيرون من مادحي الأمين في أيام عزّه ، إلى القدر فيه  
والدشنيع به وتعديد مثالبه بعد موته ، يتقربون بذلك إلى الغالب ويخطبون

ودّه . ولكن أبا نواس لم يكن من هؤلاء ، بل كان صاحب الشعور الجميل  
كما يجمل بالشاعر أن يكون ، وكان مثلاً على الوفاء ، كما يشهد كل بيت من  
هذا الرثاء :

طوى الموت ما بيني وبين محمدٍ      وليس لنا تطوى المنية ناشرٌ  
فلا وصل ، إلا عبرةً تستدعيها      أحاديثُ نفسٍ ما لها الدهرَ ذاكر  
لئن عمّرت دوراً بمن لا أودّه      لقد عمّرت ممن أحبُّ المقابر  
وكنت عليه أحذر الموت وحده      فلم يبق لي شيء عليه أحاذر

# الخاتمة

عاش أبو نواس ماعاش « طالب لذة » . ولو كان ذلك الانصراف منه إلى إصابة اللذة والتمالك على مواقعتها من قبيل جنون الشباب وفورة الصبا ، لذهب ما به مع تقدم السن وتجاوز هذا الطور من العمر . ولكنه ظل على حاله من الخلاعة والمجون إلى أن بلغ الخمسين وإلى ما بعد الخمسين . وإذا ذكرنا أنه كان ناعماً نحيل البدن تعوزه الضلعة ومتانة التركيب منذ حدثته ثم أضفنا إلى ذلك علو سنه وكهولته ، لم نصدق أن استهتاره باللذات وانغماسه فيها مما ينسب إلى فيض القوة وغلبة الشهوة ، ولا سيما إذا تدبرنا ما قيل من أنه لم يكن مجيدوداً من النساء . فالأمر إذن لا يخلو من أن الرجل كان صاحب لذة من ناحية مزاجه قبل كل شيء ، وأن فجوره كان فنيّاً ، أو - إذا شئنا اصطناع لغة الفلسفة - كان فجوراً بالقوة لا بالفعل ، أو بلفظ أدق كان بالقوة أكثر منه بالفعل . فهو - مهما يقل عن نفسه - لم يكن أقبح أهل الأرض عملاً ، وإن يكن من أقبحهم قولاً :

عَفٌّ ضَمِيرِي ، هَازِلٌ لَفْظِي ، وَفِي نَظْرِي عَرَامِي

ولقد كان في وسع أبي نواس أن يتستر ويتكتم ويستعمل النقيّة والنفاق

كغيره ، ويُصِيبُ في السِّرِّ والخفاءِ من اللهو وألوان اللذات ما يشاء . ومن المحقِّق الثابت أن أهل زمانه لم يكونوا يختلفون عنه كثيراً إلا في تسترهم ومجاهرتهم ، وسرهم وعلايته ، كما تنطق بذلك وصية شيخ البرامكة يحيى إلى ولده :

إنصبَ نهاراً في طلاب العِلا  
واصبرْ على فقدِ لقاءِ الحبيبِ  
حتى إذا الليلُ بدأ مُقبلاً  
وغاب فيه عنك وجهُ الرقيبِ  
فبادر الليلَ بما تشهى  
فإنما الليلُ نهارُ الأريبِ  
كم من فتى تحسبه ناسكاً  
يستقبلُ الليلَ بأمرٍ عجيبِ  
ألقي عليه الليلُ أستاره  
فبات في لهوٍ وعيشٍ خصيبِ  
ولذة الأحمق مكشوفةٌ  
يسعى بها كلُّ عدوٍّ مريبِ

ولكن أبا نواس كان لا يعرف اللذة إلا في المجاهرة بها ، وإعلام القاصي والداني بشئنها ، مع المبالغة والتحويل في أمرها ، كأنما اللذة ليست هي التي تعنيه ، وإنما استهتاره بها هو المعنى المقصود . وقد يكون من المفيد أن نشير هنا إلى أن هذه الآفة تكون أحياناً من علامات مُرَكَّبِ النقص في الضعاف القاصرين من أهل الإياحة المستهترين :

غدوتُ إلى اللذات منتهك السِّترِ  
وأفضتُ بنات السِّرِّ مني إلى الجهرِ  
وهان على الناسُ فيما أرومه  
بما جئتُ فاستغنيتُ عن طالب العذرِ

ألا فاسقني نحرأ ، وقل لي هي الخمر  
ولا تسقني سرأ إذا أمكن الجهرُ  
وبح باسم من أهوى ودعني من الكنى  
فلا خير في اللذات من دونها ستر

أطيب اللذات ما كان جهاراً بافتضاح  
والقارىء لجون أبي نواس ينتهى لا محالة إلى أن الشاعر يعترف على نفسه  
بأكثر مما يقترف، ذاهباً مع خياله المريض إلى أبعد ما تذهب إليه نزغات الشهوة،  
مستغرقاً في تصور ما ليست له عليه قدرة. وهو بهذا الخلط بين الوهم والحقيقة  
يتعوض من عجزه فيما بينه وبين نفسه، ويرضى غروره بما يزعمه عند من لفه  
لفه من أبناء عصره. وأياً ما كان الحال، فقد مضى صاحبنا في غوايته،  
ساذراً في جهالته، مستكثراً من الفضائح، يضع لهوه ولذته فوق كل اعتبار،  
ولا يبالي ما يجب لسنته من الوقار.

يقولون في الشيب الوقار لأهله وشيبي بحمد الله غير وقار  
وكان كلما أدبر شبابه وتداعى عنفوانه وتقدم به العمر، تركزت كل  
شهوته في الخمر، فاستهلك في شربها والعكوف عليها:  
لم يبق لى في غيرها لذة كَرَّخِيَّةٌ في الكأس كالنارِ

قالوا: «شَمِطَتْ» فقلت: «ما شَمِطَتْ يدي  
عن أن تحثَّ الى فمى بالكاس»  
فالشيخ متعلق بها، مصرٌّ عليها، غير آسٍ على شيء يفوته غيرها.  
فهى شغلُه في الحياة وطلَبَتُهُ، وهى ما بعد الحياة همُّه وموضع تفكيره  
وموضوع وصيته:

خليلى بالله لا تحفرا لى القبر إلا بقطر بل

خِلَالَ الْمَعَاصِرِ بَيْنَ الْكُورِمْ      وَلَا تُدْنِيَانِي مِنَ السُّنْبُلِ  
لَعَلِّي أَسْمَعُ فِي حَفْرَتِي      إِذَا عَصِرَتْ - ضِجَّةَ الْأَرْجَلِ

على أن للشاعر مع هذا أبياتاً في الزهد لا نحسبه نظمها منافسةً لأبي العتاهية أو غير أبي العتاهية في هذا الباب من الشعر، وإظهاراً لاقتداره في كل غرض من أغراض النظم . وإنما الذي نراه، أنه كان في بعض هذه الزهديات صادقاً كل الصدق في شعوره ، وأن شأنه في ذلك شأن الكثيرين من المنساقين في حياة الفسوق والشرب ، تنتابهم في الجين بعد الحين فتراتٌ يذكرون فيها الله وموقف الحساب وما ينتظرهم من العقاب ، وقد تبتدر عبراتهم وتتصعد زفراتهم ، ولكنهم ماضون في ضلالهم لا يستطيعون عنه صبراً :

بَكَيْتُ ، وَمَا أَبْكِي عَلَى دِمَنِ قَفَرٍ      وَمَا بِي مِنْ عَشْقٍ فَأَبْكِي عَلَى الْهَجْرِ  
وَلَكِنْ حَدِيثٌ جَاءَنَا عَنْ نَبِينَا      فَذَلِكَ الَّذِي أَجْرَى دَمَوْعِي عَلَى النَّحْرِ  
بِتَحْرِيمِ شَرِبِ الْخَمْرِ وَالنَّهْيِ جَاءَنَا      فَلَمَّا نَهَى عَنْهَا بَكَيْتُ عَلَى الْخَمْرِ  
فَأَشْرَبُهَا صِعْرَقًا وَأَعْلَمُ أَتَى      أُعْزَّرُ فِيهَا بِالْثَمَانِينَ فِي ظَهْرِي

فوقف هذا المدمن السكير في خمره ، موقف المؤمن المغلوب على أمره ، يشربها وهو عارفٌ حق المعرفة ما يتعرض له من أجلها في الدنيا وفي الآخرة :  
الراحُ شَيْءٌ عَجِيبٌ أَنْتَ شَارِبُهَا      فَاشْرَبْ وَإِنْ حَمَلَتْكَ الرَّاحُ أَوْ زَارَا  
يَأْمَنُ يَلُومُ عَلَى خَمْرَاءٍ صَافِيَةٍ      حَيْرٌ فِي الْجَنَانِ وَدَعْنِي أَسْكُنِ النَّارَا  
والقاري زهدياته يراه دائم التفكير في الموت ، يتمثل حكمه الجارى على

الأجيال والأشياء من قبلُ ومن بعدُ بغير انتهاء ، فيرى كلَّ جهدٍ الى ضياع ما دامت الغاية الفناء .

وتسلطُ فكرة الموت والشعورُ بفناء كل شيء ووشك زواله ، من الأمور التي قد تؤدي الى الزهد في نعيم هذه الحياة العاجلة ، كما قد تؤدي الى ضد ذلك تبعاً لمزاج الشخص وما رُكِّب عليه طباعه . ولقد كان من شعور شاعرنا بقصرِ المدة التي للأحياء على هذه الأرض ، وتيقُّظِ حسِّه للأيام تعبر به سراعا ، وللعمر ينطوي بساطه تحت قدميه ، وعقدِ الحياة ينفرط بين يديه ، أن تحرص على مبادرة اللذات والتمتع بها قبل الفوات :

رأيتُ الليالي مرصّدةً لمدّتي فبادرتُ لذّاتي بمبادرة الدهر

ولعله مما تجب ملاحظته ، أن أبا نواس لا يبرح حتى في زهدياته تغلب عليه نزعتُه الحسية ، فإذا هو ذكر الموت والتبر ، اقترن ذكرهما بما يتمثله تحت التراب من الوجوه الوضاء ذات السمّت والرواء .

أياربَّ وجهٍ في التراب عتيقٍ      وياربَّ حسنٍ في التراب رقيقِ  
وما الحيُّ إلا هالكٌ وابن هالكٍ      وذو نسبٍ في الهالكين عريقِ

وهو إذا زجر نفسه عن الهوى ، ووعظها بالشيب ، واستحثها على العمل الصالح لتفوز مع أهل الطاعة والتقوى بجنة المأوى ، لم يذكر من جنة المتقين إلا نساءها من الحور العين :

أيةُ . نارٍ قدحِ القادحُ      وأيُّ جدِّ بلغ المازحُ

لله درُّ الشيبِ من واعظٍ      وناصحٍ لو حذر الناصحُ  
يأبى الفتى إلا اتباعَ الهوى      ومنهجُ الحق له واضح  
فاسمُ بعينيك إلى نسوةٍ      مهورهنَّ العملُ الصالح  
لا يجتلى الحوراء من خدرها      إلا امرؤٌ ميزانه راجح  
من اتقى اللهَ فذاك الذى      سيق إليه المتجرُ الراجح

ومن كان هذا مزاجه وهذه إرادة طباعه ، فكيف يُرجى له أن يزهد  
ويتبتل ، ولا سيما إذا كان حوله من الغوايات والمغريات مثل ما فى بغداد  
وأرباضها فى ذلك العصر ، مما لا يحيط به بوصف ولا يدخل تحت حصر :  
قالوا « تنسك بعد الحج » قلت لهم « أرى ، وأرجو ، وأخشى طيزنا إذا  
أخشى قضيبَ كرمٍ أن ينازعنى رأسَ القطار وإن أسرعتُ إغذاذا  
ما أبعدَ النسك من قلبٍ تقسمه قطرُ بلبلٍ ، فقرى بُنى ، فكلوا إذا  
فإن سلمتُ - وما قلبى على ثقةٍ من السلامة - لم أسلمَ ببغدادا  
وإلى جانب هذه الغوايات الحسية غوايةٌ أدبيةٌ ، إن جازت هذه التسميةُ  
على حرص هذا الماجن على ما شاع له من شهرة وصيتٍ فى القبائح والمنكرات .  
لقيه أبو العتاهية فى المسجد وقال له : « أما أن لك أن ترعوى ؟ أما أن لك أن  
تنزجر وقد بلغت من السن والعلم ما فى دونه يتعظ العاقل اللبيب ، وأنت  
تعافر بنتَ الحارب ، وتصبو صبوة الشبان ! » . فرغ أبو نواس رأسه إليه  
وهو يقول :

أترانى يا عتاهي تاركاً تلك الملاهي !

أترانى مُفسداً بالنسك بين الناس جاهي !

والذي يقرأ عن أبي نواس ماركب من المحارم وما بلغ من مجاهرته بالمعاصي ، ويقرأ له شعره في المجون وقبح خروجه أحياناً على حرمة الدين ، ويرى كيف كان يتعرض للقتل بجهده ، وما جرّه على نفسه من التعزير والضرب والحبس في المطبق ، وهو لا يُقصر عن باطله ولا ينزع عن جهله ، قد يتصور أنه منكر من الملاحدة المعطاة افتتن بالنظر والفكر ، وذهب مذهب القائلين بالدهر ، أو هو ثائرٌ ماردٌ من العصاة العتاة على غرار إبليس ، يجترئ اجترأه ويقف من التحدي موقفه . ولكن حقيقة الأمر لمن يتقصى أشعاره وأخباره بخلاف ذلك وعلى الضد منه . فالرجل مؤمنٌ مصدقٌ بقلبه . ولا نقول إنه لم يتشكك ، فقد عاش في عصر من عصور الشك . ولكنه شكٌ من النوع الذي قد يعرض للمؤمن فلا يُخرجه إلى الإنكار ، ثم إن معظمه لا يعدو ما يجري عليه ظرفاء كل عصرٍ من مخالفة العامة وإظهار الخروج على العرف ، يضاف إليه ذهابه مع الخلاعة والمجون إلى غير حد . وقد جاء على لسان أصحابه ممن كانوا يعدلونه ويعيبون عليه مجونه روايات عدة كلها شاهد على إيمان الرجل وصحة اعتقاده . وكان يقول إذا أطالوا توبيخه وتخويفه : « والله إني لأعلم ما تقولون ، ولكن المجون يُفرط على » ، وأرجو أن أتوب فيرحمني الله عز وجل .

وظاهر من هذا أن أبا نواس لم يرتكب ما ارتكب من المعاصي وهو فارغ البال من خشية الله ، ولكنه مع ذلك لم يكن بالذى يستطيع تركها والاقلاع عنها التماساً لرضاه . وهى حالٌ من التناقض توقع فى الحيرة ولا يتبين معها وجه الطريق . على أن العصر - بما كان شائعاً فيه من مذاهب الجدل والكلام - لم يعد ما يعالط به ويستند إليه ليمضى فى حياة اللذة التى كان عليها ، من غير حاجة إلى التكذيب بالدين أو اليأس من الجنة . ذلك هو مذهب المرجئة القائل بأن الإيمان يكفى فيه التصديق بالقلب . فليست أعمال الإنسان ركناً من أركان الإيمان . والمؤمن الذى يرتكب الكبيرة لا يعدّ كافراً ، بل يقال عليه فاسقٌ فى كذا من غير إطلاق ، وإذا كان غير معدودٍ فى الكفار فهو لا يخلد فى النار . ثم إن الله لا يتخلف فى الثواب وعده ، لأن الثواب فضلٌ فىنى الله به لأن فى خلفه نقصاً . وأما وعيده بالعقاب فقد يتخلف ، لأن العقاب عدلٌ والله أن يتصرف فيه كما يشاء ، وليس فى الخلف فى الوعيد نقص . وفى ذلك يقول أبو نواس :

لا بأعمالنا نطبق خلاصاً يومَ تبدو السماتُ فوق الجباهِ  
غيرَ أنا - على الإساءة والتفريطِ - نرجو لحسنِ عفوِ الإلهِ  
ولقد عارض الخوارجُ والمعتزلةُ هذا الرأى أشدَّ المعارضة . ولعلَّ لهم فى ذلك العذر ، لا كراهةً لما ينطوى عليه من التسامح ، بل لما قد يودى إليه من تهوين أمر المعاصى وخلع الطاعات ، عند العامة وأصحاب الخلاعات :

غادِ المدامَ وإن كانت محرمةً فلكبائر عند الله غفرانُ

وقد ختم أبو نواس إحدى قصائده في وصف الخمر ، وطروقه للخجارات ،  
معرضاً ببعض أصحابه من فلاسفة المعتزلة ، وهو إبراهيم النظام ، لمعارضته  
مثلهم لهذا المذهب في العفو عن مرتكب الكبيرة :

فَقُلْ لِمَن يَدْعَى فِي الْعِلْمِ فَلِسْفَةً : « حَفِظْتَ شَيْئًا وَغَابَتْ عَنْكَ أَشْيَاءُ  
لَا تَحْظُرُ الْعَفْوَ إِنْ كُنْتَ أَمْرًا حَرِيحًا فَإِنْ حَظَرَكَهُ بِالْدِينِ إِزْرَاءُ »

من أجل ذلك كان هذا العصر العباسي بما فيه من اللهو ، تروج فيه  
مذاهب الإرجاء وخاصة فلسفة العفو<sup>(١)</sup> . ولقد أكثر الحنابلة الخلقاء من  
الشعراء القول في ذلك ، وكادوا يتواصون بالاستكثار من المعاصي ليظهر  
عفو الله أجل وأشملى :

تَكَثَّرَ مَا اسْتَطَعْتَ مِنَ الْخَطَايَا فَإِنَّكَ بِالْعُزِّ رَبًّا غَفُورًا  
سَتَبْصِرُ - إِنْ قَدِمْتَ عَلَيْهِ - عَفْوًا ، وَتَلْقَى سَيِّدًا مَلِكًا كَبِيرًا  
تَعْضُّ نَدَامَةً كَفَيْكَ مَا تَرَكْتَ - مَخَافَةَ النَّارِ - السُّرُورًا

ولا جرّم يكون أشدّ القوم تورطاً في الآثام والمعاصي ، أكثرهم توجهاً  
إلى الله ، وألهجهم بذكر عفو الله ، وأن عفوه وسِعَ كُلَّ شَيْءٍ ، فما من  
ذنبٍ مهما عَظُمَ إلا وعفوه أعظم . ولا جرّم تكون أشعار أبي نواس في ذلك  
فوق الجميع وفرة وحرارة لهجة :

يا كبيرَ الذنب ، عفو الله ه من ذنبك أكبر  
ليس للإنسان إلا ما قضى الله وقدر

ليس للمخلوق تدبيرٌ بل اللهُ المدبِّرُ  
أعظم الأشياء في أصغرِ عفو الله يصغرُ  
ولقد أثرت الحياةُ التي عاشها أبو نواس في صحته ، وفعلتْ فعلها في  
بنيته ، فدبَّ الوهنُ إلى قوته وغازض معين شِرتِه ، ورث بُرْدُ شبابه وذوى  
عوده ، وبادرتَه الشيخوخة قبل الأوان ، وأسرع إليه المشيب ولات حين مشيب :  
شيبَ رأسى الهوى على صغرِ  
وليس شيبى من باطن الكبرِ

وإذا عددتُ سنينى كم هي ، لم أجِدْ للشيبِ عذراً في النزولِ براسى  
ولم يلبث أبو نواس أن ضعف جسمه عن المقاومة ، على ما به من الحيوية  
والمراح . فجعلت تترادف عليه الأسقام والأوصاب ، وهو يغالبها بالشراب  
ويحمل عليها بالهوى ، حتى اشتدت به العلة وأثقله المرضُ ومنعه عن الحركة .  
فلزم المسكين بيته ، وقضى أياماً مثبتاً فى فراشه لا يبرحه ، عميداً لا يقدر على  
الجلوس حتى يُعمد من جوانبه بالوسائد . وكان أصدقائه يعودونه فى مرضه ،  
فيجدونه كلَّ يومٍ أسوأ حالاً من اليوم الذى قبله ، متقوف الوجه ، متغير  
اللون ، قد برى السقمُ جسمه ، وأذهب لحمه وأوهن عظمه . وهو مع ذلك صاحى  
الذهن متنبه الحس ، لا ينى ينظم الشعرَ ويغمغم به فى وصف حاله ، ويكتب به  
إلى أصحابه :

شِعْرُ حَيِّ أَتَاكَ فِي لَفْظِ مَيِّتٍ صَارَ بَيْنَ الْحَيَاةِ وَالْمَوْتِ وَقْفًا

لو تأملتني وأبصرت وجهي لم تجد من مثالٍ رسميَ حرفاً  
نفسٌ خافتٌ ، وجسمٌ نحيلٌ أرمضتهُ الأسقام حتى تعفَى  
ولم يلبث الحسن بن هانيُّ الشاعر الماجن الخليع أن طَفِيَ وعاجلته المنية .  
وكانت وفاته في سنة تسع وتسعين ومائة ، وعمره تسع وخمسون سنة . ودفن  
في مقابر الشونيزي في التل المعروف بتل اليهود، على شاطئ نهر عيسى ببغداد .  
وقد كتب صديقه ورفيق صباه الحسين بن الضحاك على قبره :

نازعَنيكَ الزمانُ يا «حَسَنُ» نخبَ سهمي وأفلحَ الزمنُ  
ليتكَ إذ لم تكن بقيتَ لنا لم تبقَ روحٌ يحوطها بدنُ  
ومما يروى عنه في مرض موته أنه التفت ذات مرةٍ إلى عُوَّاده فقال :  
« لا تشربوا الخمرَ صرفاً ، فإني شربتها صرفاً فأحرقت كبدي » . وكان  
لا يكفُّ في كل مرةٍ - مع ضعفه وخفوت صوته - عن إنشادهم شعراً له بعد  
شعر ، يُظهر فيه التوبةَ ، ويطلب من الله الصفح والمغفرة :

دبُّ فيَّ الفناء سَفلاً وعلواً وأراني أموتُ عُضواً فعُضواً  
ذهبتُ شرَّتي بجِدَّةِ نفسي ، وتذكرتُ طاعةَ الله نِضواً  
ليس من ساعةٍ مضت بي إلا نَقصتني بمرَّها بي جُزواً  
لَهفَ نفسي على ليالٍ وأيَّامٍ مِ سلكتُهِنَّ لعباً ولهواً  
قد أسأنا كلَّ الإساءة - ياربِّ - فصفحاً عنا إلهي وعفواً

وقد مضى بعضُ أصدقائه إلى بيته عقب وفاته ودَفَنَه ، فدخل إلى مرقدِه  
وثيابه لم تُحركْ بعدُ ، فإذا كلُّ ما خلفه قِمَطَرٌ فيه دفاثرٌ وجزاداتُ قراطيسٍ  
فيها نسخُ أشعارٍ وغريبِ ألفاظٍ ، ونرْدٌ وشطرٌ نَجٌّ وعودٌ وطنبور . فرَفَعَ  
وسادته ، فإذا برقعةٌ مكتوبٌ فيها :

يا ربِّ ، إن عظمتُ ذنوبيَ كثرةً      فلقد علمتُ بأنَّ عفوكَ أعظمُ  
عالي إليك وسيالةٌ إلا الرجا      وجميلُ عفوكَ ، ثم أنى مسلمُ

## ثبت المراجع

الكامل لابن الأثير	الأغانى لأبي الفرج الأصبهاني
الغزيري لابن الطقطقي	وفيات الأعيان لابن خلكان
مروج الذهب للمسعودي	أخبار أبي نواس لابن منظور
تاريخ بغداد للخطيب البغدادي	ديوان أبي نواس لجامعة حمزة الإصبهاني
تاريخ دمشق لابن عساكر	فوات الوفيات لابن شاكر الكتبي
الولاية والقضاة للسكندي	معجم الأدباء لياقوت الحموي
معجم البلدان لياقوت الحموي	زهة الالباء لابن الأنباري
البلدان لليعقوبي	المعارف لابن قتيبة
حديث الأربعاء للدكتور طه حسين بك	الفهرست لابن النديم
ضحى الإسلام للأستاذ أحمد أمين بك	العقد الفريد لابن عبد ربه
حضارة الإسلام للأستاذ نخلة المدور	نهاية الأرب للنويري
الديارات النصرانية للأستاذ حبيب زيات	البيان والتبيين والحيوان للجاحظ
تاريخ التمدن الاسلامي لجورجي زيدان	الفصل في الملل والأهواء والنحل لابن حزم
مجلة الهلال (العدد الخاص بأبي نواس)	الملل والنحل للشهرستاني
دائرة المعارف الإسلامية الخ . . .	الوزراء والكتاب للجهشياري
	تاريخ الأمم والملوك للطبري

## دائرة المعارف الإسلامية

أوفى مرجع عن الحضارة الإسلامية

تصدرها

لجنة ترصمها دائرة المعارف الإسلامية

أحمد التنتاوي . عبد الحميد بونسي

أبراهيم زكي فورشير . حافظ جهول

تم إصدار المجلدات الخمسة الأولى

وصدر العدد السادس من المجلد السادس

الاشتراك السنوي عن ستة أعداد خمسون قرشاً

إدارة اللجنة

١٤ شارع حسن الأكبر مصر . ت ٤١٣٧٥

لجنة ترجمة دائرة المعارف الإسلامية

## اعلام الاسلام

- ١ - عمرو بن العاص للمؤلف عباس محمود العقاد صدر في مارس سنة ١٩٤٤
- ٢ - منصور الأندلس « على أدهم » « ابريل »
- ٣ - بشار بن برد « ابراهيم عبد القادر المازني » « مايو »
- ٤ - المعز لدين الله « ابراهيم جهول بك » « يونيه »
- ٥ - محمد عبده للدكتور عثمان أمين « يوليه »
- ٦ - أبو نواس للمؤلف عبد الرحمن صدقي « أغسطس »

### الكتاب السابع

محمد علي الكبير للمؤلف تقي غريبال

يصدر في سبتمبر سنة ١٩٤٤